ملخص البحث

جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، تقفوها خاتمة، وفهارس.

١ـ المقدمة: تناولت فيها الحديث عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع في دراسته. ٢ـ التمهيد وجاء مشتملًا على مطلبين: المطلب الأول: التعريف بالتوكيد وبيان فائدته. المطلب الثاني: دواعي توكيد المعنى ومقاماته. ٣ ـ المبحث الأول: التوكيد في مقام وصف النبي ـ ﷺ ـ وجيش المسلمين يوم بدر. ٤ ـ المبحث الثاني: التوكيد في مقامي الفخر والمدح لشجاعة المسلمين. ٥ ـ المبحث الثالث: التوكيد في مقام رثاء شهداء المسلمين. ٦ ـ المبحث الرابع: التوكيد في مقام هجاء الكفار وتعديد قتلاهم.

وفي كل مبحث من مباحث الدراسة قمت باستقراء مقامات التوكيد التي نظم فيها حسان شعره في غزوة بدر، وتنسيق الأبيات التي نظمها حسان بحسب هذه المقامات، ثم دراسة طرق التوكيد ومواضعه المختلفة، وتحليلها تحليلًا بلاغيًا يبرز أثرها، وقيمتها، وأسرارها. ٨ ـ خاتمة البحث: وتحوي أهم النتائج التي توصل إليها. ٩ ـ الفهارس: وتشتمل على فهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

الكلمات المفتاحية: التوكيد – مقام – التقرير– حسان – غزوة بدر.

Abstract:
The research is organized into an introduction, a preface and four sections followed by a conclusion, and indices.
Introduction: It discusses the significance of the research topic, its rationale, research plan, and the methodology employed in its study. Preface: It comprises two subsections: Subsection One: It provides the definition of emphasis and elucidates its benefits. Subsection Two: It explores the reasons for emphasizing meaning and its rhetorical positions. Section One: Emphasis in the context of describing the Prophet, peace be upon him, and the Muslim army on the day of Badr. Section Two: Emphasis in the contexts of pride on and praise for the bravery of the Muslims. Section Three: Emphasis in the context of elegy for the martyrs of the Muslims. Section Four: Emphasis in the context of the satire of the disbelievers and the enumeration of their casualties.

In each section, I conducted an exploration and inference of the emphasis contexts in which Hassān composed his poetry during the Battle of Badr. I also arranged the verses composed by Hassān according to these contexts, examined the various methods and different positions of emphasis and conducted a rhetorical analysis therefor, highlighting their impact, value, and secrets. Conclusion: It summarizes the key findings concluded by the study.

Indices: They comprise an index of sources and references, and another for topics.
Keywords: Emphasis, Context, Rhetorical statement, Hassān, Battle of Badr.

المقـدمــة

****

بسم الله الكبير المتعال، القاهر فوق عباده ذي الإكرام والجلال، والصلاة والسلام على رسول الهدى المعصوم ذي الكمال، وعلى آله وصحابته الكرام والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، جاء بالهدى ودين الحق فأحيا الله به القلوب وفتح الأقفال، وبدَّل حال الجزيرة العربية من حال إلى حال.

أما بعد:

فإن الشعر كان ولا زال ذا دور كبير في إيقاظ الهِمم، وشحذ العزائم، وبعث الروح الحماسية في النفوس، وإحياء معاني التضحية والبذل على أرض الواقع، وبث معاني الثقة والشجاعة والاعتزاز بالنفس، ومحو كل أثر للاستسلام والخضوع والاستكانة.

وإذا كان هذا دور الشعر بصفة عامة فإن شعر حسان بن ثابت ـ ﷺ . بصفة خاصة يمثل القمة في هذا الشأن، وذروة السنام في الدفاع عن سيد الأنام، وردع خصوم الإسلام، وغرس شتى معاني الفداء والتضحية والاستماتة في سبيل إعلاء كلمة الله، ورفع راية الإسلام.

وحسان ـ ﷺ . وإن لم يكن ذا أثر بارز في الدفاع عن الرسول ـ ﷺ ـ بحسامه إلا أنه قد تجلى أثره في الدفاع عنه بلسانه، وإن لم يكن محاربًا مغوارًا في الميدان إلا أنه بنظمه أيقظ الجَنان، وأحيا نوازع الإيمان، وأقض مضاجع الكفار، فتجده في شعره المنظوم في غزوة بدر يُعلن الحرب النفسية على قريش، فيزلزل عروشها، ويَقُضُّ مضاجعها، ويزعزع بين العرب مكانتها؛ لتعلم قريش أن رسول الله ـ ﷺ ـ مؤيَّد منصور، وأن كل من تسوِّل له نفسه الوقوف أمام دعوته مهزوم مدحور.

وقد تبوأ حسان بن ثابت ـ ﷺ . منزلة رفيعة بين الشعراء في الجاهلية والإسلام، واستمع الرسول ـ ﷺ ـ لشعره فآزره بالقلب واللسان، ودعا له بتأييد روح القدس طالما نافح عن الله والرسول العدنان، فقد روي أن الرسول ـ ﷺ ـ قال لحسان: " إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ "[1].

وشعر حسان في غزوة بدر تميَّز بالتعريج سريعًا على بعض أحداثها، والاستفاضة في بعضها الآخر، وهذا ما تلاءم مع الأغراض التي نظم لأجلها أبياته، فمن الأحداث التي

---

(١) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ـ باب فضائل حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ ١٩٣٥/٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

تعرض لها بشيء من الإيجاز ما كان من استشهاد بعض المسلمين، وإصابة آخرين، فهذا وكل ما من شأنه أن يُحزن القلوب المؤمنة فإنه يمر عليها مرورًا سريعًا؛ تعبيرًا عن ضيق صدره، ومراعاة لمشاعر الحزن والأسى التي نزلت بأهليهم مما أصابهم، بينما كان يستفيض في الأحداث التي تتعلق بهزيمة قريش وأتباعها، وإلحاق الخزي والعار بها؛ قصدًا لإذلال أنوفهم، وكسر شوكتهم، وإضعاف هَيْبتهم من جهة، ورفع الروح المعنوية للمسلمين، وزيادة تثبيتهم وطمأنتهم من جهة أخرى، وحثِّهم على المضي قدما، ومواصلة البذل والتضحية والفداء من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا من جهة ثالثة.

لأجل هذا توجهت إلى شعر حسان ـ ﷺ . بهذه الدراسة البلاغية التي جاءت بعنوان:

مقامات التوكيد في شعر حسان بن ثابت (ﷺ) في غزوة بدر

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ أسباب أخرى منها:

أولًا: جِدَّة الموضوع، فلا أعلم ـ على حد بحثي ـ دراسة بلاغية عكفت على دراسة مقامات التوكيد في شعر حسان بن ثابت في غزوة بدر.

ثانيًا: تنوع مقامات التوكيد في شعر حسان بن ثابت في غزوة بدر، واختلافها؛ اعتبارًا بتعدد الدوافع التي أدت إليها، وقادت الشاعر نحوها.

ثالثًا: ترتب على هذا التنوع كثرة طرق التوكيد ووسائله المستعملة في كل مقام كثرة تستدعي العكوف على دراستها، وإبراز قيمتها، وأثرها في كل مقام.

رابعًا: محاولة الكشف ـ ما أمكن ـ عن الأسرار البلاغية الكامنة وراء إيثار كل طريق من طرق التوكيد المختلفة، ومدى ملاءمته للسياق الذي ورد فيه، والمقام الذي استدعاه.

خامسًا: الربط بين الدرس البلاغي والتاريخ الإسلامي في حقبة من الزمن كانت ولا زالت مضرب المثل للأمم في إبراز شجاعة المسلمين، وإحياء روح التضحية والبذل في نفوس أبناء الأمة؛ ببعث القدوات الحقيقية المتمثلة في الصحابة الكرام، والنماذج المشرِّفة التي يجب اتخاذها مَثَلًا أعلى، وقدوة يُحتذَى بها.

وأما عن الدراسات السابقة لموضوع البحث فقد وجدت بحثًا أدبيًا في مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، في مجلدها السابع والعشرين، لعام ٢٠١٤م، وهو بعنوان: "غزوة بدر في شعر حسان دراسة موضوعية وفنية"، للدكتور/ عصام حمدي عطية ضيف، وهذا البحث تناول شعر حسان في غزوة بدر من حيث الدوافع النفسية التي دفعته إلى نظم هذا الشعر، وأوضح أن هذا الشعر منه ما كان قبل الغزوة، ومنه ما كان بعدها، ومنه ما كان خلالها،

كما تناول سمات شعر غزوة بدر وخصائصه الموضوعية والفنية لدى حسان، إلا أنه لم يتطرق للحديث عن التوكيد ومقاماته باعتباره أعظم الركائز التي قام عليها شعر حسان في غزوة بدر.

وقد تنوعت مقامات شعر حسان بن ثابت في غزوة بدر، وتعددت أغراضه، فمنه ما نظمه في مقام وصف شجاعة النبي ـ ﷺ ـ وجيش المسلمين، ومنه ما كان في مقام الفخر بهم ومدحهم أو رثاء شهدائهم، أو هجاء أعدائهم وخصومهم، وقد ناسب ذلك أن تكون خطة البحث آخذة في اعتبارها هذه المقامات، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: وتضمنت أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، والخطة التي سار عليها، والمنهج المتبع في الدراسة.

التمهيد وقد اشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالتوكيد وبيان فائدته.

المطلب الثاني: دواعي توكيد المعنى ومقاماته.

أما مباحث الدراسة فجاءت على النحو الآتي:

المبحث الأول: التوكيد في مقام وصف النبي ـ ﷺ ـ وجيش المسلمين يوم بدر.

المبحث الثاني: التوكيد في مقامي الفخر والمدح لشجاعة المسلمين.

المبحث الثالث: التوكيد في مقام رثاء شهداء المسلمين.

المبحث الرابع: التوكيد في مقام هجاء الكفار وتعديد قتلاهم.

ثم تأتي خاتمة البحث، وتحوي أهم النتائج التي توصل إليها، ثم الفهارس.

أما المنهج المتبع في الدراسة: فهو المنهج التحليلي الذي يعني بدراسة مقامات التوكيد في الأبيات التي نظمها حسان في غزوة بدر، وتحليلها تحليلًا بلاغيًا يكشف عن أسرار انتقاء طرق التوكيد المختلفة ومدى ملاءمتها للسياق والمقام، كما يستعين المنهج التحليلي بالمنهج اللغوي الفني؛ للكشف عن مواطن الإبداع في الأبيات ـ محل الدراسة ـ وبيان قدرة الشاعر على تصوير أحداث الغزوة بأسلوب يأخذ بقلب السامع وعقله، والوقوف على أهم معاني الألفاظ وأغمضها، وغير ذلك مما يعين على إبراز دور التوكيد ووسائله المتنوعة في تحقيق مضمون المعاني وترسيخها وتقويتها.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه، شفيعًا يوم الدين.

د/ منى طه الداودي

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

التمهيـــد

المطلب الأول: التعريف بالتوكيد وبيان فائدته

التأكيد: لغة في التوكيد، يقال: أكَّد الشيء ووكَّده، والواو أفصح[١].

وفي لسان العرب: " وَكَّد العقد والعهد: أوثقه، والهمز فيه لغة، يقال: أوكدته وأكدته وآكدته إيكادا، وبالواو أفصح، أي شدَّدته، وتوكد الأمر وتأكد بمعنى، ويقال: وكدت اليمين، والهمز في العقد أجود، وتقول: إذا عقدت فأكِّد، وإذا حلفت فَوَكِّد[٢] .

وقال صاحب المصباح المنير: " أكَّدته تأكيدا فتأكَّد، ويقال على البدل: وَكَّدْته، ومعناه: التَّقوية[٣] .

وعلى هذا فالتوكيد في اللغة يعني: التقوية والتشديد والتوثيق.

والتوكيد اصطلاحًا: حدَّه صاحب دلائل الإعجاز بقوله: " أن تحقق باللفظ معنى قد فهم من لفظ آخر قد سبق منك[٤].

وعرفه صاحب الطراز بأنه: " تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره "[٥].

وذكر صاحب التعريفات أن التوكيد " تابع يقرر أمر المتبوع في النسبة أو الشمول"[٦]، بمعنى: "أن يكون اللفظ لتقرير المعنى الحاصل قبله وتقويته"[٧].

كما يطلق مصطلح التوكيد على معنيين:

أحدهما: التقرير، أي جعل الشيء مقرّرا ثابتا في ذهن المخاطب.

---

(١) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ١ /١٩ ، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

(٢) لسان العرب لابن منظور ـ وكد ـ ٤٦٦/٣، دار صادر، بيروت ، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي، ٢٣/١ ، وزارة المعارف العمومية، الطبعة الخامسة بالمطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٢م.

(٤) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، صـ٢٣٠، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

(٥) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى للعلويّ، ٩٤/٢، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

(٦) التعريفات للجرجاني، صـ٥٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

(٧) الكليات لأبي البقاء الكفوي، ١/ ٢٦٩ ، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

وثانيهما: اللفظ الدّال على التقرير أي اللفظ المؤكّد الذي يقرّر به"[١].

والتوكيد أسلوب يفيد تقوية المعنى المؤكَّد، وتمكينه في ذهن السامع، جاء في شرح المفصل: " وجدوى التأكيد أنك إذا كررت؛ فقد قررت المؤكد، وما علق به في نفس السامع، ومكنته في قلبه، وأمطت شبهة ربما خالجته، أو توهمت غفلة وذهابا عما أنت بصدده، فأزلته[٢].

وتكمن فائدته في: "إزالة الشكوك وإماطة الشبهات عما أنت بصدده"[٣].

فالغرض من توكيد الكلام: إعلام المخاطب بأن المتكلم يقول كلامه جازما، قاصدا ما تدل عليه عباراته، متثبتًا منها، لا يقولها عن توهم أو خيال أو ثرثرة أو اختراع أو غير ذلك[٤].

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد بن علي التهانوي، ٣٧٢/١ ، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش، ٢٢١/٢، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

(٣) الطراز ٩٤/٢ .

(٤) ينظر البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حَبَنكَة الميداني ١٨٦/١ ، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م.

المطلب الثاني: دواعي توكيد المعنى ومقاماته

إذا كانت البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإن مراعاة هذا المقتضى قد يتطلب مجيء الكلام مؤكدًا أو غير مؤكد، والسياق والمقام هو العامل المؤثر في هذا الشأن.

وقد تتابعت دراسات العلماء حول دواعي توكيد الكلام، والمقامات التي تستدعي التقرير، فذكروا أن مجيء الكلام مؤكدًا قد يكون لأسباب ترجع إلى حال الطرف المتلقي وهو المخاطب، وقد يرجع لأسباب تعود إلى الطرف المرسِل وهو المتكلم، وقد يعود لأسباب ترجع إلى الكلام المنطوق نفسه، وقد يكون لأسباب مرجعها إلى الأطراف الثلاثة جميعًا، والحدود التي تفصل بينها دقيقة، لا يدركها إلا أهل الخبرة المتمرسون بصناعة الكلام(١).

ولما كان الخبر هو حلقة الوصل بين المتكلم والمخاطب كان لزامًا على المتكلم أن يصوغ عباراته ملائمة لحال مخاطبه، مطابقة لمقتضاها، فهذا هو رأس البلاغة، وذروة سنامها؛ لذا رأي البلاغيون أن المخاطب أمام ما يُلقى إليه من الأخبار واحد من ثلاثة(٢):

الأول: المخاطب خالي الذهن الذي لا علم له مطلقًا بالحكم الذي يتضمنه الخبر، وهذا يُلقى إليه الخبر خاليًا من أي تأكيد؛ لأنه في مرحلة يتقبل معها الخبر دون مناقشة أو جدال، فتأكيد الكلام لمثله يعد من قبيل العبث.

والثاني: المخاطب الذي سبق له علم بمضمون الخبر، إلا أنه غير مطمئن إليه، متردد شاك في أمره، وهذا يؤكَّد له الخبر بمؤكد واحد استحسانًا.

والثالث: المخاطب الذي يعلم مضمون الخبر، إلا أنه رافض له، منكر لمضمونه، وهذا يتعين في حقه أن يؤكد الكلام بأكثر من مؤكد حسب درجة إنكاره وما يتلاءم معه؛ لكي يذعن ويستقر الخبر في نفسه ويتمكن.

ولهذا سُمي النوع الأول ابتدائيًا؛ لأن المخاطب ابتدأ المتكلم معنى ليس عنده أدنى فكرة عنه، وسمي الثاني طلبيًا؛ لأن المخاطب يطلب الوقوف على حقيقة الخبر، وسمي الثالث إنكاريًا؛ لأن المخاطب منكرٌ للحكم بالكلية، رافضٌ الاعتراف به من بادئ الأمر.

---

(١) ينظر وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل "دراسة في مقامات الكلام وأسراره" أ. د / السيد أحمد موسى.صـ١٣٦٨، بحث مستل من حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق ، العدد التاسع والثلاثون، ٢٠١٩م.

(٢) ينظر شروح التلخيص ٢٠٣/١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، وينظر أيضًا ألوان من تاريخ البلاغة وفن المعاني. د/ الوصيف هلال الوصيف صـ٢٤١، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.

وقد يراعي المتكلم حال نفسه فيؤكد الكلام، وتصوير المتكلم حال نفسه هو الذي قصده صاحب الدلائل في حديثه عن (إن) بقوله: " إنها قد تدخل للدلالة على أن الظن كان منك في الذي كان أنه لا يكون. وذلك قولك للشيء: هو مرأى من المخاطب ومسمع إنه كان من الأمر ما ترى وكان مني إلى فلان إحسان ومعروف، ثم إنه جعل جزائي ما رأيت، فتجعلك كأنك تَرُدُّ على نفسك ظنك الذي ظننت... "[١]

كما أن مراعاة المتكلم حال نفسه أمر يستدعي أن يصوغ كلامه في صورة التأكيد؛ لينقل شعوره وحقيقة أحاسيسه كما يجدها في نفسه، ويتصورها في عقله، وكأنه ينقل لمخاطبه واقعًا يعيشه، وحالًا كائنًا عليها، أو يكون باعثه على التأكيد الرد على غير المخاطب، أو يكون داعي التأكيد اهتمام المتكلم بالخبر، ورغبته في إيصال هذا الاهتمام للمخاطب[٢].

وقد يكون الداعي إلى التوكيد رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام عند المخاطب، وتحقيقه في نفسه وتقريره، حتى وإن لم يكن منكِرًا له، إلى غير ذلك من الأغراض التي تستدعي تأكيد الكلام بالنظر لحال المتكلم[٣].

ثم إن المخاطب قد يفترض في المتكلم حالًا غير الحال التي هو عليها، ويصوغ كلامه على اعتبار هذه الحال المفترضة، فيأتي بالتأكيد تارة، ويرسل كلامه خاليًا من التأكيد أخرى، حسبما يتوافق مع السياق والمقام، وهذا يسمى خروجًا بالكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ حيث ينزل غير المنكر منزلة المنكر، إذا ظهرت عليه علامات الإنكار، أو ينزل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره، أو ينزل خالي الذهن منزلة السائل المتردد؛ لما تقدم من مضمون الخبر ما جعله يستشرف لمعرفته استشراف السائل المتردد.

وأما عن مقامات توكيد الكلام التي يستدعيها الكلام نفسه فمنها مقام الوعد؛ لتزداد النفوس به يقينًا واطمئنانًا، أو الوعيد ليحقق في النفس رهبة وخوفًا، أو يكون التوكيد لغرابة الخبر وحرص المتكلم على إيناس نفس المخاطب؛ لأنها في حاجة إلى ما يهيؤها للقبول، وإن كانت لا تنكره، أو يكون التوكيد لفتًا للجمل التي كأنها نتائج للمقدمات؛ إشارة إلى أنها موضع العناية والمقصود الأهم، إلى غير ذلك من المقامات والدواعي والأسباب التي تستدعي توكيد الكلام وتقريره[٤].

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر صـ٢٥١ .

(٢) ينظر ألوان من تاريخ البلاغة د/ الوصيف هلال الوصيف صـ٢٤٧، ٢٤٨ .

(٣) ينظر خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ. د/ محمد محمد أبو موسى، صـ١٣٠، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.

(٤) ينظر المرجع نفسه صـ١٣٣، ١٣٤ .

المبحث الأول

التوكيد في مقام وصف النبي ـ ﷺ ـ وجيش المسلمين يوم بدر

* *

اتخذ حسان بن ثابت ـ ﷺ ـ من أسلوب التوكيد سبيلًا لتقرير الأغراض التي استدعاها مقام وصف النبي ـ ﷺ ـ وجيش المسلمين يوم بدر، وتحقيقها، وترسيخها؛ من خلال وصف شجاعة النبي ـ ﷺ ـ وجيش المسلمين، وإظهار شدة بأسهم؛ بذكر مآثرهم ومواقفهم التي خلدها التاريخ؛ وذلك باعتبار الوصف أقوى أغراض الشعر؛ فهو " شرح حال الشيء وهيئته على ما هو عليه في الواقع؛ لإحضاره في ذهن السامع كأنه يراه أو يشعر به"(١)؛ لأن الوصف جزء طبيعي من منطق الإنسان؛ فالنفس بفطرتها بحاجة إلى ما يكشف لها من الموجودات حولها، وما يكشف للموجودات منها، ولا يكون ذلك إلا بتمثيل الحقيقة، وتأديتها إلى التصور من طريق الحس المعنوي(٢).

وقد تنوعت في هذا المقام طرق التوكيد، وتعددت وسائله حسبما اقتضاها مقام الوصف هنا، وهذا ما سيوضحه البحث ـ إن شاء الله تعالى ـ في نظم حسان ـ ﷺ ـ في هذا المقام، كالذي جاء في قول حسان في وصف الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه يوم بدر(٣):

مُستَشعِري حَلَقَ المازِيِّ يَقدُمُهُم جَلدُ النَحيزَةِ ماضٍ غَيرُ رِعديدِ
أَعني الرَسولَ فَإِنَّ اللَهَ فَضَّلَهُ عَلى البَرِيَّةِ بِالتَقوى وَبِالجودِ
وَقَد زَعَمتُم بِأَن تَحموا ذِمارَكُمُ وَماءُ بَدرٍ زَعَمتُم غَيرُ مَورودِ
وقد وَرَدنا وَلَم نَسمَع لِقَولِكُمُ حَتّى شَرِبنا رَواءً غَيرَ تَصريدِ
مُستَعصِمينَ بِحَبلٍ غَيرِ مُنجَذِمٍ مُستَحكِمٍ مِن حِبالِ اللَهِ مَمدودِ
فينا الرَسولُ وَفينا الحَقُّ نَتبَعُهُ حَتّى المَماتِ وَنَصرٌ غَيرُ مَحدودِ

---

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ٢/ ٢٦ ، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت.

(٢) ينظر تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ، ٨٠/٣ ، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة، لبنان، بيروت، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

(٣) الأبيات من بحر البسيط وهي في السيرة النبوية لابن هشام (ت: ٢١٣هـ)- ٢٨٨/٣ – تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ. وفي ديوان حسان بن ثابت تحقيق/ د. وليد عرفات، ١٢٨/١ ، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦م.

ماضٍ عَلى الهَولِ رِكّابٌ لِما قَطَعوا إذا الكُماةُ تَحامَوا في الصَنـــاديدِ
وافٍ وَماضٍ شِهابٌ يُستَضاءُ بِهِ بَدرٌ أَنارَ عَلى كُلِّ الأَماجيـــــدِ
مُبارَكٌ كَضِياءِ البَدرِ صورَتُـــــهُ ما قالَ كانَ قَضاءً غَيرُ مَــردودِ

نظم حسان بن ثابت هذه الأبيات التي تصف النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه يوم بدر، والغرض من نظمها: بث الرعب في قلوب المشركين؛ بوصف جيش المسلمين يوم بدر، وشجاعتهم، وشدة بأسهم، وإبراز صفات النبي ـ ﷺ ـ التي تدعوا إلى الفخار، وقد استهل قصيدته بقوله:

مُستَشعِري حَلَقَ الماذِيِّ يَقدُمُهُم جَلدُ النَحيزَةِ ماضٍ غَيرُ رِعديدِ[1]
أَعني الرَسولَ فَإِنَّ اللهَ فَضَّلَـــهُ عَلى البَرِيَّةِ بِالتَقوى وَبِالجــودِ

وقد آثر حسان بن ثابت التوكيد بطريق الأسلوب الكنائي في وصف النبي ـﷺ ـ وأصحابه يوم بدر بقوله: (مُستَشعِري حَلَقَ الماذِيِّ): فهو كناية عن استعداد النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه للجهاد في سبيل الله يوم بدر، وتأهبهم للقاء العدو، حتى إنهم اتخذوا من دروعهم شعارًا لهم، والشعار: ما ولي الجسد من الثياب، يقال: استشعرت الثوب إذا لبسته على جسمك من غير حاجز[2]، وكأن دروعهم وأسلحتهم في يوم بدر ليست شعار أجسادهم فحسب، بل هي شعار قلوبهم، وفي هذا دلالة على عزيمتهم التي بلغت مبلغًا عظيمًا، وإصرارهم الذي لا يُضاهَى، ورغبتهم في الجهاد والتضحية بأرواحهم في سبيل الزود عن نبيهم، وإعلاء شأن دينهم.

وإذا آثر الكناية عن صفة في الشطر الأول من البيت، فإنه يؤثر الكناية عن موصوف في الشطر الثاني في قوله: (جَلدُ النَحيزَةِ ماضٍ غَيرُ رِعديدِ)، فهو كناية عن رسول الله ـﷺ ـ؛ إذ يصفه بطبيعته القوية، وبسالته في الحرب، وشجاعته التي يستمد منها الصحابة قوتهم، وإقدامه واقتحامه صفوف الأعداء في شدة بأس، وقوة لا نظير لها.

وكان للتوكيد بطريق الكناية دور في بث مزيد من ألوان الرعب والخوف والفزع في نفوس المشركين؛ إذ أبرزت الكناية ما عليه المسلمون من قوة، وشجاعة، واستبسال في ميدان القتال، وتفانٍ في التضحية بالأنفس قبل الأموال؛ وذلك لأن إثبات الصفة بإثبات دليلها أقوى

---

(١) الماذِيُّ: الدِّرْع والمِغْفَر وَالسِّلاح كله من الحديد. لسان العرب، مذي، ٢٧٥/١٥.
الجلد: القوي الشديد. لسان العرب، جلد، ١٢٥/٣ .
النحيزة: الطبيعة، لسان العرب، نحز، ٤١٥/٥.
غير رعديد: غير جبان، لسان العرب، رعد، ١٧٩/٣.

(٢) ينظر لسان العرب، شعر، ٤١٣/٤ .

في توكيدها وتحقيقها من المجيء بها عارية عن الدليل والبرهان[١].

ويعمد حسان إلى التوكيد بطريق التوضيح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال في قوله: (أعني الرسول)؛ إذ استطاع من خلاله ترسيخ المعنى في نفوس المتلقين، وإبراز مصدر قوة المسلمين التي تشع إيمانًا ويقينًا يغمر قلوبهم، ويملأ نفوسهم، كما أنه يمثل أيضًا السهم الذي يخترق قلوب المشركين قبل صدورهم، فهم يعلمون جيدًا أنه مُؤيَّد من الله، وأن الله ناصره، ولكنهم يعرضون ويعاندون.

ويؤثر حسان التوكيد بجملة التعليل في قوله: (فإن الله فضله على البرية بالتقوى وبالجود)، وتصدرت الفاء الجملة التعليلية فأشعرت بشدة الارتباط المؤدي إلى توكيد المعنى وتقريره؛ لما اتسمت به الفاء من معنى التعقيب والترتيب على وجه السرعة، من غير مهلة أو تراخ[٢]، وهو بهذا التعليل يوضح السبب في أن يتقدم رسول الله الجيش، فهو بالإضافة إلى ما ذكره من شجاعة وبسالة وشدة بأس في الحرب ـ وهذه الأمور أدعى إلى أن يكون في المقدمة ـ تجد تفضيل الله له على البرية قاطبة.

ولما كان الغرض من نظم القصيدة هو بث الرعب والخوف والفزع في قلوب أعداء المسلمين؛ بذكر مآثر المسلمين ومواقفهم التي خلدها التاريخ، اتخذ حسان من أسلوب التوكيد سبيلًا لتقرير هذا الغرض، وتحقيقه، وترسيخه في النفوس؛ لذا تعرَّض إلى ذكر واقعتين: الأولى: للأسود بن عبد الأسد المخزومي[٣]، والثانية: هي تحقق ما ذكره النبي ـ ﷺ ـ قبيل نشوب المعركة من بيان مصارع بعض الكفار بأسمائهم.

فيعمد حسان إلى التوكيد في تصوير مشهد من مشاهد بدر، يقرر من خلاله شدة بأس المسلمين وقوتهم، وأن أفعالهم هي التي تترجم معاني الإيمان الصادقة في قلوبهم، وأن دوافع الاستبسال والشجاعة كانت سببًا في نصرهم، فقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي يوم بدر ـ وكان رجلا سيئ الخلق ـ وقد عاهد الله ليشربن من حوض المسلمين أو ليهدمنه أو

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز صـ٧٢ .

(٢) ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي صـ٦١ وما بعدها، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢ م.

(٣) الأسود بن سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي أخو هبار بن سفيان بن عبد الأسد، وابن أخي أبي سلمة، قُتل يوم بدر كافرًا. ينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) ١/٢٣٠ – تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤ م.

يموت دون ذلك ـ وكان المسلمون قد غَوَّروا جميع الآبار عدا بئر بدر ـ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فضربه ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، فسقط على ظهره تشخب رجله دما نحو أصحابه، ثم أخذ يحبو حتى وصل إلى البئر؛ يريد أن يَبَرَّ يمينه، ويشرب منها فضربه حمزة فقتله[١].

وقد عمد حسان في هذا المقام إلى التوكيد حين تطرق إلى الحديث عن واقعة الأسود بن عبد الأسد المخزومي في قوله:

وَقَد زَعَمتُم بِأَن تَحموا ذِمارَكُـــمُ وَماءُ بَدرٍ زَعَمتُم غَيرُ مَــورودِ[٢]

وقد وَرَدنـــــا وَلَم نَسمَع لِقَولِكُمُ حَتّى شَرِبنا رَواءً غَيرَ تَصريدِ[٣]

وهذان البيتان تعريض بالمشركين، وتوبيخ، وتبكيت لهم على أفعالهم تجاه النبي ـﷺـ على سبيل الاستهزاء والسخرية والتشنيع بما اقترفوه في محاربة النبي ودعوته، وكان التوكيد سبيلًا لإبراز شدة التهكم والاستهزاء بالمشركين، فاستعمل (قد) والفعل الماضي، بالإضافة إلى صيغة الزعم[٤] التي تؤكد السخرية والاستهزاء بأقوالهم، وتؤيد تعريض حسان بهم وبأفعالهم التي تخالف أقوالهم، ويؤثر حسان طريق الإيجاز بقوله: (وَماءُ بَدرٍ زَعَمتُم غَيرُ مَــورود) فقد أوجز ما حدث من الأسود المخزومي في الغزوة، وعلى الجانب الآخر يؤثر طريق التوكيد في الافتخار بالمسلمين، حين هزموا المشركين شر هزيمة، فآثر (قد) والفعل الماضي (وردنا)؛ مظهرًا شدة بأس المسلمين وشجاعتهم التي جعلت قوتهم لا يقف أمامها أحد.

كما عمد حسان إلى التوكيد بالنعت (رَواءً) الواصف لماء بدر بالكثرة والعذوبة[٥] في قوله: (حَتّى شَرِبنا رَواءً غَيرَ تَصريدِ)، وقرر معناه بنفي المصدر المبين لنوع الشرب في قوله: (غير تصريد)، فقد نَزَل المسلمون ببدر وشربوا منه حتى ارتووا ؛ وهذا يؤكد قوتهم، وبسط سيطرتهم على الماء، مما يدل على شجاعتهم، وعدم الالتفات إلى ما زعمه المشركون.

---

(١) ينظر السيرة النبوية لابن هشام ١٧٣/٣ .

(٢) الذمار: ذمار الرجل وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه، وإن ضيعه لزمه اللوم. لسان العرب ـ ذمر ـ٣١١/٤.

(٣) التصريد: سقي دون الري. لسان العرب ـ صرد ـ ٢٤٩/٣.

(٤) الزعم: ادعاء العلم بالشيء، ومن عادة العرب أن من قال كلاما وكان عندهم كاذبا قالوا: زعم فلان. ينظر لسان العرب ـزعم ـ ٢٦٤/١٢ ، والكليات صـ٤٨٨.

(٥) ماءٌ رَوِيٌّ ورِوىً ورَواءٌ: كثير مُرْو عَذْب. ينظر لسان العرب، روي، ٣٤٥/١٤ .

ويلجأ حسان إلى التوكيد عن طريق التصوير الاستعاري في قوله:

مُستَعصِمينَ بِحَبلٍ غَيرِ مُنجَــذِمٍ مُستَحكِمٍ مِن حِبالِ اللهِ مَمدودِ(١)

حيث استعير الحبل لدين الله استعارة تصريحية، وهذا يضفي مزيدًا من القوة والثبات، وشدة البأس والجلدة على وصف المسلمين في اعتصامهم بدين الله وامتناعهم به، واحتمائهم فيه، وصدق لجوئهم إليه، والتأكيد على شجاعتهم واستبسالهم الذين لا نظير لهما.

ثم بَيَّن حسان أحد أسباب نصرة المسلمين بعد اعتصامهم بحبل الله المتين، فذكر أن وجود الرسول ـ ﷺ ـ بين ظهرانيهم، هو أعظم أسباب نصرتهم، فضلًا عن أن هذا الأمر مدعاة إلى الافتخار على غيرهم؛ ولذا كان التوكيد بأسلوب القصر الذي جاء بطريق التقديم للجار والمجرور في قوله: (فينا الرَسولُ وَفينا الحَقُّ نَتبَعُــهُ) فهو قصر إضافي، أي فينا الرسول لا فيكم، وفينا الحق لا فيكم؛ ليبرز أن وجود الرسول ـ ﷺ ـ بينهم هو السبب الرئيس لنصرتهم، وأنهم متبعوه حتى الممات، وعلى دينه ما داموا على قيد الحياة.

ويتابع حسان في ذكر أوصاف الرسول ـ ﷺ ـ قائلًا:

ماضٍ عَلى الهَولِ رِكّابٌ لِما قَطَعوا إِذا الكُماةُ تَحامَوا في الصَناديــدِ(٢)

وافٍ وَماضٍ شِهابٌ يُستَضاءُ بِــهِ بَدرٌ أَنارَ عَلى كُلِّ الأَماجيـــــدِ

مُبارَكٌ كَضِياءِ البَــدرِ صورَتُـــهُ ما قالَ كانَ قَضاءً غَيرُ مَــردودِ

والتوكيد هنا جاء بطريق التصوير في قوله: (ماض على الهول ركاب لما قطعوا) فهو كناية عن إقدام الرسول ـ ﷺ ـ وشجاعته، وجرأته، وبسالته، ففي وقت الشدائد والمصاعب الذي يلجأ فيه الشجعان إلى الاحتماء بأسلحتهم ودروعهم تجد الرسول ـ ﷺ ـ في مقدمتهم يقتحم الأهوال، ويخوض غمار الحرب بكل حسم ومضي وشجاعة.

ثم يعمد تارة أخرى إلى التصوير من خلال التشبيه في قوله:

وافٍ وَماضٍ شِهابٌ يُستَضاءُ بِــهِ بَدرٌ أَنارَ عَلى كُلِّ الأَماجيـــدِ

حيث شبهه بالشهاب الذي يستضيء به المارة في ظلمات الليل، وبالبدر الذي هو عنوان للمجد والشرف والرفعة، ثم إنه لم يُشْبِه البدر في رفعته وعزته وعلو شأنه فحسب، بل

---

(١) الجذم: القطع. لسان العرب، جذم، ٨٦/١٢ .

(٢) الهول: الخوف والأمر الشديد المفزع. لسان العرب، هول، ٧١٢/١١ .

الصناديد: الشدائد من الأمور والدواهي. لسان العرب، صند، ٢٦٠/٣.

الكماة: جمع كمي، وهو اللابس السلاح وقيل: الشجاع المقدم الجرئ، سمي بذلك لأنه كمى نفسه أي: سترها بالدرع. لسان العرب، كمى، ٢٣٢/١٥.

أشبهه في صورته التي هي الضياء المنير الذي أشرق على البشرية جميعها، فأخرجها من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد.

والغرض من وصف حسان للرسول ـ ﷺ ـ بالصفات المذكورة: تقوية عزيمة المسلمين من جانب، وزعزعة قلوب الكفار وتبكيتهم لعدم اتباعهم النبي ـ ﷺ ـ بعد ما رأوا منه هذه الصفات الداعية إلى اتباعه، والمطمئنة لمن اتبعه من جانب آخر.

ثم يؤثر حسان التوكيد بطريق الكناية في قوله:(ما قال كان قضاء غير مردود) فهو كناية عن صدق النبي ـ ﷺ ـ فيما أخبر به عن مصارع الكفار، وقد كانت كما قال، وهذا الشطر من البيت إيجاز لما حدث فقد جاء في صحيح البخاري أن عبد الله بن مسعود حدثه أن النبي ـ ﷺ ـ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي ـ ﷺ ـ ووضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئا، لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ـ ﷺ ـ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره، فرفع رسول الله ـ ﷺ ـ رأسه ثم قال: «اللهم عليك بقريش». ثلاث مرات، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: (اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط)- وعد السابع فلم يحفظ -، قال: فوالذي نفسي بيده، لقد رأيت الذين عد رسول الله ـ ﷺ ـ صرعى، في القليب قليب بدر"[1]

وفي موضع آخر من مقام الوصف الذي تنوعت فيه طرق التوكيد قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ حين صور نزول الملائكة يوم بدر[2]:

وَيَومَ بَدرٍ لَقيناكُم لَنا مَدَدٌ فَيَرفَعَ النَصرَ ميكالٌ وَجِبريلُ

في هذا البيت يرسم حسان بن ثابت صورة اللقاء بين جيش المسلمين والمشركين يوم بدر، وقد جعل أسلوب التوكيد طريقًا للوصول إلى غرضه، وتقرير مراده الذي سعى إليه؛ إذ اتخذ من التقديم للظرف (ويوم بدر) على معموله (لقيناكم) دلالة على عِظم هذا اليوم، وأهميته التي ذاعت وانتشرت على مسامع الجميع، ثم قرر هذا المعنى بالفعل الماضي (لقيناكم)

---

(١) صحيح البخاري، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قذر أو جيفة ٥٧/١ رقم ٢٤٠ ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) البيت من بحر البسيط وهو في السيرة النبوية لابن هشام ١٠٢/٤ ، وفي ديوان حسان ٥٠٥/١ .

الذي أكد اللقاء، وحققه ورسخ له في القلوب؛ لأنه ليس لقاء كأي لقاء، فلا مقارنة بين عدد جيش المسلمين وعدتهم، وبين عدد المشركين وعدتهم، ومع ذلك كان النصر حليف المسلمين.

وللتوكيد أثر كبير في إبراز قوة المسلمين، ومدى شجاعتهم التي بلغت الآفاق، وقوتهم التي أصبحت على مرأى ومسمع من أهل الجزيرة العربية، ولكن حسان لم يثبت الفضل لذات المسلمين، وإنما رسخ للعقيدة التي يجب أن تحيا عليها القلوب، وتعيش على أثرها النفوس المؤمنة، تلك العقيدة هي أن النصر من عند الله، وأنه لولا المدد والعون من الله ما استطاعوا أن يحرزوا انتصارًا، ولا يقدموا في سبيل الله أرواحًا؛ لذا كان القصر بطريق التقديم للجار والمجرور (لنا) على المسند إليه (مدد)؛ توكيدًا لمبدأ العقيدة التي لا بد أن تترسخ في النفوس، وتقريرًا لمعنى الاعتراف بفضل الله، وترسيخًا ليقين تعلق القلوب بالله؛ لأنها متى تعلقت بخالقها، وأذعنت لأوامره، أتاها النصر والمدد والعون منه تعالى.

ولا يزال التوكيد طريق شاعرنا في تصوير هذا اليوم، ووصف مشاهده، حيث عطف بالفاء على الشطر الأول فقال: (فَيَرفَعَ النَصرَ ميكالٌ وَجِبريلُ)، وكأنه بالفاء يطوي الزمان والأحداث، ويسابق مشاهد المعركة وتفاصيلها، إلى إعلان انتصار المسلمين، وسقوط راية الشرك وأهله، ويؤكد هذا المعنى تقديم المفعول (النصر) على الفاعل (ميكال وجبريل).

كما تعد هذه الفاء تفصيلًا للمعنى الذي أُجْمِل في الشطر الأول، وإيضاحًا وتفسيرًا لما أُبْهِم فيه، وتأكيدًا وتقريرًا لمضمونه؛ إذ تمثَّل المدد المذكور في نزول جبريل وميكائيل إلى أرض المعركة، ومعهم عدد كبير من الملائكة، وهذا ما أيَّدَته الأحاديث النبوية؛ إذ كان المؤمن يرمي بسهمه إلى المشرك فيُقتل المشرك قبل أن يصل السهم إلى صدره[1].

---

(١) روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال يوم بدر: «هَذَا جِبْرِيلُ، آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ، عَلَيْهِ أَدَاةُ الحَرْبِ» صحيح البخاري ـ باب شهود الملائكة بدرًا ـ ٨١/٥ رقم ٣٩٩٥ ، كما كانت الملائكة يوم بدر تبادر المسلمين إلى قتل أعدائهم، قال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وسوط الفارس فوقه يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه مستلقيا، فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمعه، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: (صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة). ينظر صحيح مسلم ـ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٣٨/١، وينظر غزوات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للسيد الجميلى صـ٣٨ ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤١٦ هـ .

وجاء أيضًا في هذا المقام ما نظمه حسان بن ثابت ـ ﷺ . في وصف ثقة المسلمين بربهم ويقينهم بالنصر يوم بدر[1]:

فما نَخشى بِحَولِ اللهِ قَومـــاً وَإِن كَثُروا وَأُجمِعَتِ الزُحـوفُ
إِذا ما أَلَّبــوا جَمعــاً عَلَينـــا كَفانـــا حَدَّهُـــم رَبٌّ رَؤوفُ
سَمَونا يَومَ بَـــــدرٍ بِالعَوالي سِراعاً ما تُضَعضِعُنا الحُتوفُ
فَلَم تَرَ عُصبَةٌ في الناسِ أَنكى لِمَن عادوا إِذا لَقِحَت كَشوفُ
وَلَكِنّا تَوَكَّلـــــنـــــا وَقُلنـــا مَآثِرُنا وَمَعقِلُنــا السِيـــوفُ
لَقيناهُم بِها لَمّا سَمَـــــونـــا وَنَحنُ عِصابَةٌ وَهُمُ أُلـــوفُ

في هذه الأبيات يتطرق حسان بن ثابت إلى وصف ثقة المسلمين بربهم، ويقينهم أنه مؤيدهم وناصرهم، وأن قوتهم لن تضعف مهما كثر الأعداء ضدهم؛ لأنهم لا يخشون في الله لومة لائم، قال:

فما نَخشى بِحَولِ اللهِ قَوماً وَإِن كَثُروا وَأُجمِعَتِ الزُحوفُ

فالشاعر نفي خوف المسلمين من أي أحد، ونفى خشيتهم ورهبتهم من أعدائهم؛ ولذا ناسب ذلك تنكير المفعول (قومًا)؛ ليشعر بهوان وضعف من يقف أمام المسلمين، ويؤكد عجز ووهن من تسول له نفسه الوقوف أمامهم، أو يخطر بباله محاربتهم، وجاء التوكيد بتقديم الجار والمجرور (بحول الله) على المفعول (قومًا)؛ لأن المقام يتطلب توكيدًا وترسيخًا لمضمون الكلام، وتثبيتًا وتحقيقًا ليقينهم في الله الذي هو منبع قوتهم، ومصدر عزهم، فقد استمدوا شجاعتهم وجرأتهم في المعركة من الاستعانة بحول الله وقوته، وهذا هو سبب عدم خشيتهم من أحد؛ لأن الباء في (بحول الله) للسببية، كما أكد هذا المعنى الاعتراض بالجار والمجرور في أثناء الجملة.

وحسان بهذه الأبيات يخوض حربًا معنوية ضد قريش قبل أن تخطو أقدام المسلمين الحرب الحسية، لأنه يهدف إلى زعزعة ثقة المشركين، وبث صنوف الرهبة والخوف في صفوفهم، وإشاعة الهلع والرعب بينهم؛ لأنهم إذا انهزموا نفسيًا كانت هزيمتهم المادية محققة، ونصر المسلمين مؤزرًا؛ لذا آثر الماضي في فعل الشرط (كَثُروا، وأُجمِعت) بعد دخول (إن) التي تستعمل في الأمر المشكوك النادر، مما يزيد من إضعاف حماسة المشركين، وإشعارهم بأن كثرة عددهم ـ إن كانت في بعض المعارك والغزوات ـ لن تنفعهم، ولن تكون سببًا في

---

(١) الأبيات من الوافر وهي في السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٠/٣ ، وفي ديوان حسان ٤٩٥/١، مع اختلاف يسير في البيت الأول.

نصرهم، وأيد ذلك حذف جواب الشرط؛ فقد اكتنفه ما يدل عليه، وكان فعل الشرط ماضيًا[1]، وحذفه هذا يزيد من إضعاف الروح المعنوية للكفار، وزعزعة قوتهم فلا تصمد أمام قوة المسلمين؛ لأن الجواب المحذوف دل عليه ما ذكر في الشطر الأول: (فما نخشى بحول الله قومًا).

ولما كانت غاية المشركين الأولى هي استئصال شأفة المسلمين، وإضعاف شوكتهم؛ حتى يُمحى كل أثر للدعوة الإسلامية عند إلحاق الهزيمة بهم، لم يكن هناك بد من حشد المشركين لكل قوة ضد المسلمين، وكان السبيل لهذا إيثار (إذا) من أدوات الشرط في قوله:

إذا ما ألَّبوا جَمعاً عَلَينا كَفانا حَدَّهُم رَبٌّ رَؤوفُ

ولإبراز شدة حقدهم على المسلمين، ومحاولة المكيدة لهم بكل وسيلة كان التوكيد بفعل الشرط (ألَّبوا) ماضيًا؛ ليحقق مضمون الكلام، ويرسخ له في النفوس، وتنكير المفعول (جمعًا) يفيد التكثير والتهويل لمحاولات المكيدة التي سلكها المشركون ضد المسلمين؛ إظهارًا لشدة ما يضمرونه من عداوة للمسلمين، ولكن أنى لقوة المشركين أن تقف أمام قوة الرب المهيمن ؟! لذا جاء الماضي (كفانا) مقررًا لمعتقد المؤمنين بربهم، ومرسخًا لكل معاني اليقين فيهم، ومبطلًا لكل ضعف حاول المشركون بثه في صفوف المسلمين.

ولا يزال الفعل الماضي هو أكثر الوسائل لتوكيد مضمون الكلام في هذه الأبيات، وتحقيق المعنى وتثبيته في النفوس، فيؤثره حسان في قوله: (سَمَونا، توكلنا، قُلنا، لقيناهم)؛ بغرض تقرير ثقة المسلمين في الله ـ عزَّ وجل ـ وتأكيد غاية توكلهم عليه، وتعلق قلوبهم به، ويقينهم أنه ناصرهم ولن يخذلهم.

ومن خلال الفعل المضارع تتجدد محاولات المشركين لزعزعة صفوف المسلمين، وتتكرر ولكن دون جدوى فيقول حسان ـ رضي الله عنه . :

سَمَونا يَومَ بَدرٍ بِالعَوالي سِراعاً ما تُضَعضِعُنا الحُتوفُ[2]

فالمضارع (تضعضعنا) هنا أكد كثرة محاولات المشركين زعزعة المسلمين، وركوبهم ألوان المخاطر تلو الأخرى في سبيل تحقيق غايتهم، كما أنه أفاد استحضار المشهد، ووضعه نصب العين، وكأن المخاطب يرى ويشاهد، مما يقرر تضاعف أعداد المشركين في المعركة، وأن نهاية الاحتدام بهم هي الموت الحتمي، ولكن هيهات لأي قوة على وجه

---

(١) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك/ محمد علي حمد الله، صـ٨٤٩، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.

(٢) العالية: رأس القناة، وجمعها عوالي، وعالية الرمح رأسه. ينظر لسان العرب، علا، ٨٧/١٥ . الضعضعة: التذلل والخضوع والانكسار لسان العرب، ضعضع، ٢٢٤/٨ .

الأرض أن تضعف المسلمين، أو تكسر شوكتهم، أو تبث الخوف في صفوفهم.

ويأتي التوكيد في صورة الجملة الحالية الاسمية في قول حسان: (وَنَحنُ عِصابَةٌ وَهُمُ أُلــوفُ)، وقد اجتمع في هذه الصورة تأكيدان، الأول: التوكيد المستفاد من الجملة الحالية؛ لأن التوكيد من خصائص الحال على وجه العموم(١). الثاني: التوكيد المستفاد من الجملة الاسمية التي تفيد بطبيعة دلالتها الثبوت والدوام الذي يقتضي توكيدًا وتقريرًا(٢)، والتوكيد هنا جاء ليقرر من خلاله غرضه الذي أنشأ الأبيات لأجله، وهو تقرير قوة إيمان المسلمين، وترسيخ معنى ثقتهم بربهم، ويقينهم الذي لا تزعزعه الجبال الرواسي، وهذا شأن المؤمن بالله، لا يرى لقوة عدوه أو كثرة عدده من سبيل إلى الظفر به، طالما امتلك قلبًا موقنًا بالله؛ لأن المؤمن لا يحيا بحسابات البشر التي تقوم على الأسباب البحتة، بل يحيا بقوانين رب البشر التي تصل إلى حد المعجزات.

(١) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام، صـ٣١٦، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، بدون تاريخ.

(٢) ينظر وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل. أ. د/ السيد أحمد موسى صـ١٥٣٣ .

المبحث الثاني

التوكيد في مقامي الفخر والمدح لشجاعة المسلمين

****

استطاع حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أن يوظف طرق التوكيد المتنوعة، وأساليبه المختلفة لخدمة الأغراض التي استدعاها مقامي الفخر والمدح لشجاعة المسلمين، فكانت وسائل التوكيد على تنوعها برهانًا على صدق كلامه، ودليلًا يؤيد حديثه بما لا يدع مجالًا للشك معه.

وإنما قمت بضم نظم حسان في غزوة بدر في مقامي الفخر والمدح معًا لتعذر الفصل بينهما، ولتداخلهما في الأبيات، ومرجع هذا إلى الفرق الطفيف بين الفخر والمدح؛ فالفخر: "هو تمدح المرء بخصال نفسه وقومه، والتحدث بحسن بلائهم ومكارمهم، وكرم عنصرهم ووفرة قبيلهم، ورفعة حسبهم، وشهرة شجاعتهم"(١).

والمدح: هو تعداد المحاسن الخلقية، والثناء على ذي شان، بما يستحسن من الأخلاق النفسية كالشجاعة ورجاجة العقل، والعفة، وإثبات أن هذه الصفات عريقة فيه، وفي قومه(٢)؛ لذا كان من الأنسب الجمع بين المقامين هنا، وجاء هذا في نظم حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يوم بدر(٣):

لَقَد عَلِمَتْ قُرَيشٌ يَومَ بَـدرٍ غَـداةَ الأَسرِ وَالقَتلِ الشَديدِ
بِأَنّا حينَ تَشتَجِرُ العَوالـي حُماةُ الرَّوعِ يَومَ أَبي الوَليد
قَتَلنا اِبنَي رَبيعَةَ يَومَ ساروا إِلَينا في مُضاعَفَةِ الحَديـدِ
وَفَرَّ بِها حَكيمٌ يَـومَ جالَت بَنو النَجّارِ تَخطِرُ كَالأُسـودِ
وَوَلَّت عِندَ ذاكَ جُموعُ فِهرٍ وَأَسلَمَها الحُوَيرِثُ مِن بَعيـدِ
لَقَـد لاقَيتُمُ خِزيـاً وَذُلّاً جَهيزاً باقِياً تَحتَ الوَريـدِ
وَكانَ القَومُ قَد وَلَّوا جَميعاً وَلَم يَلوُوا عَلى الحَسَبِ التَليدِ

في هذه القصيدة يتابع حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ الحرب اللِّسَانِيَّة التي أعلنها على قريش؛ إذ استطاع بكل براعة أن ينشر خبر الحرب الجسدية ـ غزوة بدر ـ على مسامع الناس، فأصبح من لم يشهد هذه الغزوة ليس بأقل علمًا وإدراكًا لأحداثها ووقائعها ممن شَهِدها، وذلك

---

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ٢/ ٢٥ .

(٢) ينظر المرجع السابق ٢/٢٦ .

(٣) الأبيات من الوافر وهي في السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٨٧ ، وفي ديوان حسان ١/١٨٠ .

بفضل قدرة حسان الرائعة على وصف مشاهدها، وذكر كل ما من شأنه أن يقض مضاجع المشركين، ويذل أنوفهم، وما يرفع راية الإسلام خفاقة؛ فخرًا بالنصر الذي أيد الله به نبيه ـ ﷺ ـ والمسلمين.

وقد استهل حسان قصيدته بالأسلوب الخبري المؤكد، وتعددت طرق التوكيد؛ إذ بدأها باللام الموطئة للقسم، وقد، والفعل الدال على المضي، وإنما آثر ماضي الفعل (عَلِم)؛ لأن أمر غزوة بدر لم يكن معلومًا لقريش في بدايته، فلما ذاع صيته وانتشر علمت قريش عن بكرة أبيها بنبأ غزوة الفرقان، وبما حدث من أسرٍ لبعضهم وإثخان شديد لجراح بعضهم الآخر.

وهذا الذي عَلِمَتْه قريش هو شدة بأس المسلمين، واستبسالهم في الزود عن دينهم، والدفاع عن نبيهم دفاعًا تهون معه أرواحهم، ويصغر معه كل عظيم في عيونهم، وفي هذا قال حسان:

بِأَنّا حينَ تَشتَجِرُ العَوالـــي حُماةُ الرَّوعِ يَومَ أَبي الوَليدِ(١)

وقد ساق حسان من طرق التوكيد ما يبرهن صدق كلامه، ويعضد حديثه بالأدلة والبراهين التي لا تدع مجالًا للشك فيما حدث، فيؤثر التوكيد بالباء الزائدة، وأنَّ، واسمية الجملة: (بِأَنّا حينَ تَشتَجِرُ العَوالـي حُماةُ الرَّوعِ) مما يؤكد شجاعة المسلمين آنذاك، وشدة قوتهم التي بلغت مبلغ الفخار، ثم إنه لما كان أمر الغزوة بالنسبة لقريش صدمة كبرى، وسُبَّة تلحقهم على مدار تاريخهم، كان ذيوع صيت غزوة بدر أمرًا يُنَكِّس رؤوسهم، ويحط من شأنهم بين قبائل العرب؛ لذا تعاضدت طرق التوكيد في القصيدة وكأنها ضربة تلي الأخرى، فما يكادون يسمعون أحدًا أحداثها إلا ويأتي حدث آخر يشهد على مدى الذل والخزي الذي لحق بهم.

كما آثر حسان التوكيد بطريق التقديم لشبه الجملة الظرفية:(حينَ تَشتَجِرُ العَوالـي) الذي يشعر بقوة المسلمين وثباتهم في هذه الغزوة، فكونه يصف المسلمين بأنهم حماة الحرب في حد ذاته أمرًا يدعو إلى الفخار، وتقريره لهذا المعنى وتوكيده بأنهم حماة الحرب في حال اشتباك أسنَّة الرماح مدعاة للفخار من باب أولى؛ لأن هذا الوقت تتجلى فيه أسمى معاني الشجاعة وألوان التضحية والبذل.

وقد استطاع حسان ببراعة أن يُطَوِّع طرق التوكيد المتنوعة لخدمة غرضه الذي ساق القصيدة لأجله، وهو إعلان هزيمة المشركين وزعزعة كيانهم بين القبائل، وإبراز قوتهم التي

---

(١) عوالي الرماح: أسنتها. لسان العرب، علا، ٨٧/١٥ .

الروع: الفزع ويقصد به الحرب. لسان العرب، روع ، ١٣٥/٨ .

يفتخرون بها بين العرب في صورة يندى لها الجبين؛ حيث صور اشتباك أسِنَّة الرماح بين الفريقين، واستبسال جيش المسلمين حتى الموت، ووصف المسلمين بكونهم حُماة الحرب، ثم الكناية عن يوم بدر ووصفه باسم أحد صناديد الكفر ـ يوم أبي الوليد ـ، كل هذا دليل على شدة ضراوة هذه المعركة، وأنها لم تكن معركة سهلة؛ لأن التكافؤ في العدد والعدة كان مفقودًا؛ إذ بلغ عدد المسلمين ثلاث مائة وبضعة عشر رجلًا، معهم فَرَسان، وسبعون بعيرًا، بينما كان عدد جيش قريش ألف رجل معهم مئتا فرس(١)، فكان عدد قريش ثلاثة أضعاف المسلمين تقريبًا، وكأن كل مسلم يقابله ثلاثة رجال من قريش.

كما أن إيثار لفظ الاشتجار دليل على شجاعة المسلمين، وتفانيهم في الحرب والزود عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته، وإيثار صيغة المضارع منه يصور شدة احتدام المعركة بين الفريقين، وكأن هذه الغزوة لشدة ما حدث فيها قد صار الاحتدام بين الفريقين على مرأى ومسمع من الجميع، ولحوق الذلة والعار بقريش صار مشهودًا على رؤوس الخلائق أجمعين.

ويعرض حسان لذكر بعض فرسان قريش الذين قُتلوا يوم بدر، وخارت قواهم أمام صمود المسلمين وشجاعتهم، ولا شك أن مثل هذا الأمر مدعاة لإلحاق الخزي بهم.

وفي ذلك يقول حسان:

قَتَلنا اِبنَي رَبيعَةَ يَومَ ساروا إِلَينا في مُضاعَفَةِ الحَديـدِ(٢)

وَفَرَّ بِها حَكيمٌ يَومَ جالَـت بَنو النَجّارِ تَخطِرُ كَالأُسـودِ(٣)

---

(١) ينظر السيرة النبوية د/ علي محمد الصلابي ٦/٢ ، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

(٢) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد، كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية، كان موصوفا بالرأي والحلم والفضل، خطيبا، نافذ القول، وأول ما عرف عنه توسطه للصلح في حرب الفجار (بين هوازن وكنانة) وقد رضي الفريقان بحكمه، وفي غزوة بدر أحاط به علي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث، فقتلوه. ينظر الأعلام للزركلي، ٢٠٠/٤، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر/ أيار / مايو ٢٠٠٢ م، وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس، من زعماء قريش في الجاهلية، أدرك الإسلام، وقتل على الوثنية، وقد جعل دأبه في أيام موسم الحج أن يصد الناس عن النبي ـ صلّى الله عليه وسلم ـ ولما كانت وقعة بدر، حضرها شيبة مع مشركيهم، وقُتِل فيها. ينظر الأعلام للزركلي، ١٨١/٣.

(٣) تخطر: تهتز معجبة بنفسها، متعرضة للمبارزة عند التصاول والوعيد. ينظر لسان العرب، خطر، ٢٥٠/٤ .

فيتطرق حسان إلى بعض ما حدث يوم بدر؛ يسوقه دليلًا على شدة بأس المسلمين، وشجاعتهم التي أذلت قريشًا وأهانتهم، وقد عرض لمقتل عتبة وشيبة ابني ربيعة، فحين بلغ كفار قريش أن أبا سفيان قد أفلت بقوافل قريش التي خرج المسلمون لأجلها، كان أبو الوليد عتبة بن ربيعة قد خرج مع فرسان قريش لحماية القوافل، فقال لهم: ارجعوا ولا تقاتلوا واعصبوها برأسي، لكن فرسان قريش وعلى رأسهم عمرو بن هشام رفضوا الرجوع وقالوا: هل تأمنون إن نجت القافلة هذه المرة أن تنجوا كل مرة ؟ لا والله لن نرجع حتى نأتي بدرًا فنعسكر فيه ثلاثًا، وننحر الجزر، وتسمع العرب بنا وبمسيرتنا فلا يزالون يهابوننا، والتقى الفريقان في ساحة المعركة، وعندما خرج للمبارزة ثلاثة من صناديد قريش ـ عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ـ خرج إليهم عبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب، فقتل حمزة شيبة، وقتل علي الوليد ، واختلف عبيدة وعتبة فجرح كل منهما الآخر، ثم أجهز حمزة وعلي على عتبة فقتلاه(١).

كما يذكر حسان من بعض أحداث بدر ما كان من فرار حكيم بن حزام(٢) في هذا اليوم، فإنه لم يُقتل، ثم إنه قد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان إذا جهد في يمينه قال: (لا والذي نجاني من يوم بدر)(٣)، وقد استعمل حسان في ذكره هذه الأحداث من طرق التوكيد: الفعل الماضي في قوله: (قتلنا، وفَرَّ) حين ذكر ما يتعلق بهزيمة قريش، والخزي والذل الذي لحق بها، بينما آثر الفعل المضارع حين أراد الافتخار بالمسلمين وشجاعتهم، وبالأخص حين افتخر ببني النجار الذين ينتمي إليهم حسان، فضلًا عن كونهم أخوال النبي ـ ﷺ ـ قبل ذلك، فقال في جانبهم: (تخطر كالأسود).

وحسان ــ رضي الله عنه ـ بهذه الصورة التشبيهية التي رسمها لبني النجار في قوله: (تخطر كالأسود) يؤكد غرضه الذي أنشأ القصيدة لأجله، وسعى إلى نشره على مسامع قريش، وهو

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام ١٧٣/٣ وما بعدها.

(٢) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين، صحابيّ، قرشي، ولد بمكة، وشهد حرب الفجار، وعمَّر طويلا، وكان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام، عالما بالنسب، أسلم يوم الفتح، توفي بالمدينة (٥٤ هـ). ينظر أسد الغابة ٥٨/٢ ، وسير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي. ٤٤/٣، تحقيق/ مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، والأعلام ٢٦٩/٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١٦٩/٣ .

الفخر بالمسلمين يوم بدر، ومدحهم بأسمى معاني المدح والثناء، والتأكيد على أن قلة عددهم لا يمنع من إقدامهم على الحرب، فالفعل (تخطر) بما يحمله من معنى الكبرياء والأنفة، والشدة والقوة، والفخر والثبات يوحي بأن أهل بدر كانوا من الخطورة بمكان، ومن الشجاعة والاستبسال ما يجعلهم يقدمون عليهم كالأسود، لا يهابون إلا الله، ولا يخشون لومة لائم.

ثم يختم قصيدته بالتأكيد على غرضه، والنتيجة الحتمية المتوقعة للمشهد الذي صوَّره في بداية القصيدة، وهو هزيمة قريش وما لحقها من ذل وخزي وعار فقال:

وَوَلَّت عِندَ ذاكَ جُمـوعُ فِهرٍ وَأَسلَمَها الحُوَيرِثُ مِن بَعيـدِ
لَقَــد لاقَيتُمُ خِزيـــاً وَذُلّاً جَهيزاً باقِياً تَحتَ الوَريـــــدِ
وَكانَ القَومُ قَد وَلَّوا جَميـعاً وَلَم يَلوُوا عَلى الحَسَبِ التَليدِ

ولا يزال التوكيد هو الفرس الذي يعتليه حسان وهو يصور مشاهد بدر؛ إذ استطاع أن يرسم صورة انهزام قريش ببراعة، ويصف أحداثها بأسلوب يبث الرعب في قلب كل من تسوِّل له نفسه أن يتجرأ على الإسلام والمسلمين بعد هذه الغزوة، ويزعزع كل مؤامرة يخطط لها كل متآمر يريد هدم الدعوة وتقويض بنيانها، فيجعل حسان من الفعل الماضي طريقًا لتأكيد مشاهد هذه الغزوة وتحققها، ونتيجة حتمية ترتبت على شجاعة بني النجار، وشدة تفانيهم في المعركة، فقال: (ولَّت، أسلمها، لاقيتم، ولَّوا)، فكل فعل من هذه الأفعال يقرر مدى هزيمة قريش، وما أصابها في هذا اليوم من صدمة عجزت عقولهم عن إدراكها، فالماضي: (وَلَّى) ـ بما يتضمن من معاني الذهاب والهروب والإدبار والإعراض[1] ـ يوحي بالجبن والخوف والهلع الذي أصاب قريشًا في هذا اليوم، كما يشي الفعل (أسلم) ـ بما يحمله من معاني الاستسلام والانقياد والخضوع ـ بما كان من شأن الحارث بن المغيرة؛ إذ لما اشتعلت رحى الحرب بين الفريقين، ما كان منه سوى الاستسلام والفرار، فكان الجبن عنده وقتها سيد الأخلاق، وكان تخليص رقبته من أيدى المسلمين مدعاة إلى تعيِّره بعد ذلك بما فعله يوم بدر؛ ولذا ناسب هذا الذي حدث منه تصغير اسمه: (الحويرث) ليناسب فراره من المعركة، ذاك الأمر الذي لا يفعله إلا صغار الناس وضعفاؤهم.

أما الفعل الماضي (لاقيتم) فقد اكتنفه من حروف التوكيد: (اللام الموطئة للقسم، وقد)، وهذا ما يتلاءم مع وصف حسان لشدة ما لحق قريش من الخزي والذل الذي جرى منها مجرى الدم، وأيَّد ذلك إيثار لفظة (جهيزًا) التي أوحت ـ بما تحمله من معاني السرعة

(١) ينظر لسان العرب، ولي، ٤١٥/١٥ .

والخفة[1] ــ بقوة المسلمين آنذاك؛ إذ استطاعوا بكل براعة أن يجهزوا على قريش كما يُجهز الذابح على ذبيحته بكل سرعة وخفة ومهارة.

وقد كان لقريش مكانتها بين العرب، ولا يستطيع أحد أن يتجرأ على النيل منها، ولكن بعد ما حدث لها من هزيمة على يد المسلمين صارت سُبَّة وعارًا لا تستطيع قريش أن ترفع رأسها بعده بين القبائل، والتوكيد بالتصوير الكنائي في قوله: (لَقَـد لاقَيتُمُ خِزيـــاً وَذُلّاً جَهيزاً باقِياً تَحتَ الوَريـــد) كان دليلًا وبرهانًا على ذلك، فقد كنى عن لصوق هذا الخزي وتلك المهانة والانحطاط بها بكونه تحت الوريد، وهو بهذا يصور شدته وبقاء أثره على مرِّ الأزمان.

وأما الفعل (ولَّوا) فصاحبه من حروف التوكيد (قد)، ورافقته صيغة التوكيد (جميعًا)؛ ليؤكد من خلال هذا أن الفرار من غزوة بدر لم يكن لبعض أفراد من جيش قريش، وإنما كان لجيش قريش عن بكرة أبيه، وبعد أن كانت القبائل تتحاكى بمجد قريش ومكانتها، أصبحت بعد هذا الفرار غير مكترث بها، ذليلة مهانة، لا شأن لها، ولا أثر، ولا عجب فإن فرارها جعلها غير عابئة بمجدها، غير باكية على مآثرها التي خلَّفتها وراءها.

وقد تميز شعر حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ في مدح الرسول ــ ﷺ ــ وجيش المسلمين بطابع خاص؛ لأنه نبع من محبة وانتماء، ولم يكن لأي غرض دنيوي مادي، كما كان يفعل أغلب الشعراء، وقد أضفى إيمانه وعقيدته الراسخة على شعره مزيدًا من عناصر الجمال، فجاء نظمه قريب الفهم، رقيقًا، لطيفًا، متين الأسلوب، بديع التركيب[2].

ويتضح هذا من خلال نظم حسان في مقامي الفخر بجيش المسلمين ومدحهم يوم بدر[3]:

أَلا لَيتَ شِعري هَل أَتى أهل مَكَّةَ ... إِبارَتُنا الكُفّارِ في ساعَةِ العُسرِ

قَتَلنا سَراةَ القَومِ عِندَ رِحالِهِـــم ... فَلَم يَرجِعوا إِلّا بِقاصِمَةِ الظَهرِ

قَتَلنا أَبـــا جَهلٍ وَعُتبَةَ بَعـــدَهُ ... وَشَيبَةُ يكبُو لليدين وللنحـــــر

وَكَم قَد قَتَلنا مِن كَريـــــمٍ مُرَزَّءٍ ... لَهُ حَسَبٌ في قَومِهِ نابِهِ الذِكرِ

تَرَكناهُمُ لِلعاويـــاتِ تَنوبُهُـــم ... وَيَصلَونَ ناراً بَعْدُ حامِيَةَ القَعرِ

لَعَمرك ما خَامَتْ فَوارسُ مالـكٍ ... وَأَشياعُهم يَومَ اِلتَقَينا عَلى بَدرِ

---

(١) ينظر المرجع نفسه، جهز ، ٣٢٥/٥ .

(٢) ينظر شاعر النبي حسان بن ثابت الأنصاري (دراسة ونقد ومنتخبات) لعبد الله أنيس الطباع صـ٣٣ ، مكتبة المعارف في بيروت.

(٣) الأبيات من الطويل وهي في السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٩/٣ ، وفي ديوان حسان ٤٢/١ مع اختلاف يسير بينهما.

استهل حسان أبياته بأسلوب التوكيد فقال:

أَلا لَيتَ شِعري هَل أَتى أهل مَكَّةَ إبارَتُنا الكُفّارِ في ساعَةِ العُسرِ[1]

وقد تمثل التوكيد بداية في التنبيه بـ(ألا) الاستفتاحية، التي تدل على تحقق ما بعدها، وكونها مركبة من الهمزة و(لا) هو ما أفادها التحقيق، لأن همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي أفادت التحقيق[2]، وهو من خلال هذه الأداة يلفت الأذهان، ويستميل القلوب، ويحمل الآذان على الإصغاء.

وقوله: (ليتَ شِعْري) أي: " ليت عِلمي أو ليتني علمتُ، وليت شِعْرِي من ذلك أي: ليتني شَعَرْتُ"[3]، وإيثاره لهذا التعبير وما يحمله من معنى التعجب[4] مما يؤيد طريقته في جذب الانتباه، واستدعاء القلوب لتلقف ما يأتي بعدها من كلام؛ إذ استهلال القصيدة بهذه الطريقة يبرز أهمية ما يُقدَّم له، وما يسعى إلى غرسه في العقول، وتثبيته في الجنان، وتأكيده وتقريره لمضمونه في الأذهان، فالتعجب من شيء ينشأ عن " تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله"[5].

ويدندن حسان حول تأكيد مراده، والوصول إلى بغيته من خلال أسلوب الاستفهام في قوله: **(هَل أَتى أهل مَكَّةَ إبارَتُنا الكُفّارِ)** والاستفهام لتقرير المعنى وتحقيق مضمونه، وهو أنه قد تأكد لدى أهل مكة ما وصلهم من خبر انتصار المسلمين في غزوة بدر، وانهزام قريش ورجوعهم مكة ناكسي الرؤوس، ولشدة هول هذا الخبر على أهل مكة، وصعوبة تحملهم له، وتصديقهم إياه، ناسب ذلك أن يؤكد الكلام بأكثر من طريق؛ حيث افتتحه أولًا بأداة الاستفتاح (ألا)، ثم صيغة التعجب (ليت شعري) التي تؤكد وصول خبر انتصار المسلمين إلى مسامع قريش، ثم الاستفهام التقريري: (هل أتى أهل مكة) الذي يعد بمنزلة الحجة التي أُخذت على قريش؛ تأكيدًا على تنامي خبر انهزامهم وغلبة المسلمين إلى مسامعهم، بل إلى مسامع الجزيرة العربية بأسرها.

ويذكر حسان بعض صور الشجاعة والبأس لجيش المسلمين فيقول:

---

(١) الإبرار: الغلبة؛ يقال أَبَرَّ عليه أي: غلبه. والمُبِرُّ: الغالب. ينظر لسان العرب، برر، ٥٥/٤.

(٢) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٩٦/١ .

(٣) لسان العرب، شعر، ٤٠٩/٤ .

(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة ١٢٠٦/٢، تأليف: د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م.

(٥) الكشاف للزمخشري، ٥٢٣/٤، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

قَتَلنا سَراةَ القَومِ عِندَ رِحالِهِم فَلَم يَرجِعوا إِلّا بِقاصِمَةِ الظَهرِ[1]

قَتَلنا أَبا جَهلٍ وَعُتبَةَ بَعــــدَهُ وَشَيبَةُ يكبُو لليدين وللنحـــــر

وقد عمد إلى تحقيق المعنى وتثبيته بالفعل الماضي (قتلنا)؛ ليؤكد به مضمون الكلام، ويقرر شدة بأس جيش المسلمين، مما يبرز قوتهم، ويستدعي مدحهم على مر الأزمان، وبرهان هذا تقييد القتل بالمفعول: (سَراة القوم)، فهذا القتل لم يكن لضعفاء القوم أو جبنائهم، وإنما كان لأشرفهم منزلة، وأرفعهم قدرًا، وأعلاهم رتبة ومكانة، مما يؤكد شجاعتهم التي تستحق أن تكون مضرب المثل، والتي تجعل من الصحابة أساطيرًا للشجاعة، وقدوة للشباب في التضحية والفداء.

وجاء العطف بالفاء في قول حسان: (فَلَم يَرجِعوا إِلّا بِقاصِمَةِ الظَهرِ) مؤذنًا بسرعة انقضاء أعظم قتال على مدار التاريخ؛ إذ سرعان ما انتهت المعركة، معلنة انتصار المسلمين وهزيمة قريش، وهذا مما يؤكد الغرض الذي سعى إلى ترسيخه في النفوس، وتثبيته في الأذهان.

وبينما يؤثر حسان ــ رضي الله عنه ـ صيغة الماضي في التأكيد على شجاعة المسلمين وقوتهم، تجده يؤثر صيغة المضارع حين ذكر ما حدث للمشركين في المعركة بقوله: (فلم يرجعوا)؛ تصويرًا لحالتهم إثر قتل أشرافهم وصناديدهم، وكأنه يجسد مشهدًا واقعيًا يستحضر معه صورة هؤلاء المشركين؛ إبرازًا لشدة ضعفهم، وسرعة هزيمتهم، ووقع أثرها على نفوسهم، ويؤيد هذا إيثار التوكيد بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء: (فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر)؛ فقد قصر الرجوع بالهزيمة والخسران على المشركين، قصر صفة على موصوف، قصرًا ادعائيًا؛ حيث نُزِّلت قريش منزلة من ينكر هزيمة جيشها على يد جيش المسلمين، وكاد عقلها أن يطيش من شدة هول الصدمة، فلا تصدق ما وصل إلى مسامعها؛ لذا كان القصر بالنفي والاستثناء خير طريق لتوكيد المعنى وتقريره، ولا شك أن التوكيد بطريق القصر من أقوى طرق التوكيد؛ لأنه يستلزم النفي والإثبات عند تخصيص شيء بشيء ونفيه عما سواه، وذاك لأن جملة القصر بمنزلة جملتين: إحداهما مثبتة والأخرى منفية[2].

ويأبى حسان إلا أن يدعم كلامه بالدليل والبرهان؛ حيث أتى بالكناية في قوله: (قاصمة الظهر) وهي كناية عن المصائب الشديدة التي تقصم الظهر، وهذه الكناية تؤكد صدقه، وتقرر قوله، وتدحض كل رأي يخالف ما أراد أن يثبته؛ لأن هزيمة قريش مصيبة قصمت

---

(١) السَّرَاة: اسم للجمع على غير قياس، والقياس: سُراة مثل قُضاة، وسَرَاة القوم: أعلاهم، وأشرفهم وأرفعهم منزلة وشأنًا. ينظر لسان العرب، سرى، ٣٧٨/١٤ .

(٢) ينظر شروح التلخيص ١٦٦/٢ .

ظهرها، ونكّست رأسها بين قبائل الجزيرة العربية في وقت كانت أقوى القبائل وأرفعها منزلة.

وتقديم قتل أبي جهل على غيره هنا؛ لأن أبا جهل كان صاحب رأي مواصلة السير إلى جيش المسلمين وعدم رجوعهم إلى مكة بعد وصول خبر نجاة أبي سفيان بالقافلة، ورغم ذلك أصر على عدم الرجوع، ومن جانب آخر فإن حسان بدأ بذكر قتل صنديد من صناديد الكفر كأبي جهل، زعيم الكفر ورأس الشرك؛ ليكون ذلك أدعى إلى بث الرعب في قلوب المشركين من جهة، وتثبيت قلوب المسلمين من جهة أخرى؛ بإبراز قوتهم، وشجاعتهم، وفروسيتهم التي تعجز عن الوقوف أمامها رؤوس الشرك وزعماء الكفر.

والتوكيد في هذا المقام يتخذ سبيلًا آخر، حيث ذكر حسان بعضًا من صور القتل التي جعلت من جيش المسلمين مضربًا للمثل في الشجاعة والقوة، والإقدام والاستبسال في الميدان، فصوَّر مقتل شيبة بقوله: (وَشَيبَةُ يكبُو لليدين وللنحـــر)، فآثر صيغة المضارع (يكبو) التي يستحضر بها هذا المشهد، ويصور بها سقوط شيبة ومقتله على يد حمزة بن عبد المطلب، وكأنه يُقتَل أمام الأعين مرة تلو أخرى، على مرأى ومسمع من الجميع، في مشهد تنخلع له القلوب، وتفزع له النفوس.

وبعد أن ذكر حسان ــ بشيء من التفصيل ــ بعض الأسماء التي كان مقتلها علامة نصر مؤزر للمسلمين، يذكر ــ على سبيل الإجمال ــ أن ما حدث هو غيض من فيض، وقليل من كثير، مما يؤيد قوة المسلمين ويدعو إلى مدحهم، والفخر بهم، وإبراز بسالتهم فقال:

وَكَم قَد قَتَلنا مِن كَريمٍ مُرَزَّءٍ لَهُ حَسَبٌ في قَومِهِ نابِهِ الذِكرِ(١)

ففي هذا البيت يتابع حسان ــ ﷺ ــ ذكر مآثر جيش المسلمين ويعدد مفاخرهم؛ حيث إنهم دكوا معاقل الكفر، وزعزعوا ثوابتهم حين أكثروا فيهم القتل، وأعملوا فيهم السيوف، ولكن الداعي إلى الفخار هنا هو أن قتلى الكفار كانوا من أشرافهم وكرمائهم، ولما كان هذا الأمر قادحًا في حق قريش، ومن الصعب عليها تَقَبُّل مثل هذا الخبر عند سماعه لأول وهلة، ناسب في مقامي الفخر والمدح استعمال أكثر من طريق لتوكيد الكلام، وتقرير مضمونه، فاستعمل (كم) الخبرية التي تدل على الكثرة؛ لتشعر بكثرة القتل الواقع في صفوف المشركين، وأن المسلمين أهزلوا طاقتهم، وأضعفوا قواهم، فما استطاعوا الصمود أمام قوة المسلمين وبسالتهم.

كما أكد مضمون الكلام بالفعل الماضي (قتلنا) بعد دخول (قد) عليه، فأفاد تحقيق

---

(١) الرزء: المصيبة، ورجل مرزءٍ: أي كريم يصيب الناس من خيره كثيرًا، وقوم مرزؤون: يصيب الموت خيارهم. ينظر لسان العرب، رزأ، ٨٦/١ .

القتل، ووقوعه على النحو المذكور، وقد عمد حسان إلى التوكيد من خلال تكرار الفعل الماضي (قتلنا)، فكرره ثلاث مرات، وهكذا رسَّخ للمعنى وقرره في النفوس بالتكرار، وقد قيل: إن الكلام إذا تكرر تقرر[1].

كما نشأ التوكيد من خلال إيثار صيغة المبالغة (كريم)، فأكد على معنى إيقاع القتل بأكارم قريش وأشرافها بإيثاره صيغة (فعيل)؛ لأن الألفاظ أدلة المعاني، فإذا زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به[2]، وأكده أيضًا بالنعت (مرزءٍ) الذي يقرر لمعنى الكرم فيهم؛ لأن شدة الكرم مدعاة لإنزال الناس بهم حاجاتهم.

هكذا سلك حسان بن ثابت طرق التوكيد المتنوعة للتأكيد على أن المسلمين أوقعوا القتل على أكارم القوم وأشرافهم، ومن له حَسَب وذكر بينهم؛ إظهارًا لشدة بأسهم، وإبرازًا لشجاعتهم التي تجعلهم لا يقتصرون على قتل الجبناء مخمولي الذكر، بل إن قوتهم تنتقي القتلى من كبرائهم وعلمائهم، والتقديم للجار والمجرور (له حَسَبٌ) يؤكد استحقاق المسلمين المدح؛ فإن الشجاع إذا قتل جبانًا لا يُمدَح بهذا، وإنما يكمن موطن الشجاعة الذي يستحق الثناء عليه حينما يبارز الشجاع مثله فيهزمه، حينها يستحق الثناء.

ويتابع حسان ــ رضي الله عنه ــ ذكر مواطن الشجاعة لجيش المسلمين، والتي كانت عقابًا نزل بقريش أذل أنوفهم، وكسر شوكتهم، فبعد أن أفحموا أشرافهم قتلًا تركوهم طعامًا للذئاب والسِبَاع تتناوب عليهم فقال:

تَرَكناهُمُ لِلعاويـــاتِ تَنوبُهُم وَيَصلَونَ ناراً بَعْدُ حاميَةَ القَعرِ

وقد أكد هذا المعنى بالفعل الماضي (تركناهم) الدال على تحقق الترك وتقرره، فأثبت عن طريقه إذلال المسلمين للكفار وإخضاعهم لقوتهم، كما استعان بتقديم الجار والمجرور (للعاويات) على ترسيخ معنى الإذلال للكفار، والتحقير لشأنهم، وأن منزلتهم وقَدْرَهم ــ مهما كان قتلاهم من الشرفاء ــ لا يتعدى أن يكونوا طعامًا للذئاب والسِبَاع، وصور هذا المشهد بصيغة المضارع (تنوبهم) الذي استطاع من خلاله أن يستحضر صورتهم في الأذهان، فتتناوب عليهم الذئاب مرة تلو أخرى، في صورة مستقبحة مستقذرة، تنفر منها النفس، ويشمئز منها القلب.

ثم إن حسان ــ رضي الله عنه ــ لم يكتفِ بأن جعل عقاب هؤلاء الكفار هو القتل والإذلال في الدنيا

---

(١) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ٣/٢٢٤ ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

(٢) ينظر الخصائص لابن جني، ٣/٢٧١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.

فحسب، بل جعل العقاب يلاحقهم في الآخرة، والخزي والذل لا يفارقهم بعد مماتهم فقال: (وَيَصلَونَ ناراً بَعْدُ حاميَةَ القَعر) فعبر بصيغة المضارع التي تفيد التجدد والاستمرار، وتدل على تكرار الحدث؛ فكونهم صَلْي النار صورة متجددة لهم، كلما نضجت جلودهم بُدِّلت جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب، وأيَّد هذا تنكير النار، ووصفها بكونها حامية القعر، مما يقرر شدة المهانة والتحقير من شأن الكفار ويرسخه.

كما نشأ التوكيد لمضمون الكلام، وتقرير مغزاه من الاقتباس؛ حيث اقتبس الشطر الثاني من البيت من قوله تعالى: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٤]، وهو بهذا الاقتباس يؤصِّل للمعنى الذي قرره من القرآن، فإذلال الكفار وهزيمتهم والخزي الذي لحق بهم لا يقتصر على الدنيا، فهناك ما هو أشد إيلامًا من هذا في الآخرة، وهو العذاب الذي ينتظرهم، والنار التي يصلونها جزاء كفرهم، ولا شك أن الاقتباس من القرآن أشد وقعًا على النفوس، وأعظم تأثيرًا في القلوب.

ويعمد حسان في آخر بيت من القصيدة إلى التوكيد لغرضه الذي أنشأ القصيدة لأجله، وهو مدح جيش المسلمين، والفخر بهم، والثناء على شجاعتهم، فآثر أسلوب القسم بقوله:

لَعَمرك ما خَامَتْ فَوارسُ مالكٍ وَأشياعُهم يَومَ اِلتَقَينا عَلى بَدرِ(١)

فبعد أن ذكر حسان مآثر جيش المسلمين، وبطولاتهم التي سطَّرها في الأبيات السابقة، وحشد لها من طرق التوكيد ما يقرر معناها، ويرسخ لمضمونها، ناسب ذلك أن يعقب طرق التوكيد بأسلوب القسم " متبعاً النهج العربي في توكيد الأخبار به، لتستقر في النفس ، ويتزعزع فيها ما يخالفها، وإذا كان القَسَم لا ينجح في حمل المخاطب على التصديق، فإنه كثيراً ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله"(٢).

وإذا أدى التوكيد دوره في تقرير المعنى وتثبيته لدى المخاطب، وزعزعة كل معنى يخالفه، فإنه من جهة أخرى صور حال حسان نفسه، ومدى انفعاله بالحكم الذي يقرره الكلام، فجاء الخبر مقررًا كما أحسه، وكما امتلأت به نفسه؛ حرصًا منه على إذاعته وتقريره في النفوس.

وحسان بهذا القَسَم يغلق الباب أمام كل من تُسوِّل له نفسه أن يبث الضعف في صفوف المسلمين، أو يزعزع الإيمان بشجاعتهم؛ لأن دأب هذا الجيش القوة والصلابة والصبر عند

---

(١) خامت: ضعفت، يقال: رأيت خَمَّانًا من الناس: ضعفاء. ينظر لسان العرب، خام، ١٩١/١٢.

(٢) من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي. صـ١٣٢ ، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥ م

الحرب، ولذا آثر كلمة: (فوارس مالك) وهي كلمة يضرب بها المثل في الشجاعة والإقدام، وقد استعملت كثيرًا في مدح الجيوش، فإيثار حسان لفوارس مالك مقصود إليه؛ حيث شاعت هذه الكلمة في وصف كل شجاع مقدام(١).

وختم حسان بهذا البيت بعد أن ساق كثيرًا من طرق التوكيد، التي قرر من خلالها قوة جيش المسلمين، وأنهم استحقوا الفخر والمدح لما بذلوه من تضحيات في غزوة بدر، وما ظهر من بسالتهم في ميدان القتال.

(١) ينظر غزوة بدر في شعر حسان دراسة موضوعية وفنية صـ٣٣٥، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، المجلد ٢٧، عام ٢٠١٤م.

المبحث الثالث

التوكيد في مقام رثاء شهداء المسلمين

****

عنِيّ مقام الرثاء بتعداد مناقب الميت، واستعظام المصاب فيه، وإظهار التفجع والتلهف عليه، فهو يجمع بين التفجع والحسرة والأسف والتلهف والاستعظام، ثم ذكر صفات المرثي مبللة بالدموع(١).

وقد برع حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ في تطويع طرق التوكيد المختلفة، وأساليبه المتنوعة لخدمة الأغراض التي استدعاها مقام رثاء شهداء المسلمين في غزوة بدر، وتميز رثاء حسان بالعاطفة الصادقة، والإحساس المرهف، والمشاعر الجياشة، والتصوير الدقيق؛ وهذا ما يتطلبه مقام فقد الأحبة، والتوكيد في مثل هذا المقام يقوي من تثبيت النفوس على معتقدها، ويعيد إلى العقول رشدها وصوابها بعد أن كاد الحزن يصيبها باليأس والقنوط.

وقد جاء هذا في قول حسان بكاء على شهداء المسلمين في يوم بدر(٢):

أَلا يــا لَقَومٍ هَل لِما حُمَّ دافِـــــعُ وَهَل ما مَضى مِن صالِحِ العَيشِ راجِعُ
تَذَكَّرتُ عَصراً قَد مَضى فَتَهــافَتَت بَناتُ الحَشــا وَانهَلَّ مِنّي المَدامِـــعُ
صَبابَـــةُ وَجــدٍ ذَكَّرَتني أَحِبَّــةً وَقَتلى مَضَــوا فيــهِم نُفَيعٌ وَرافِـــعُ
وَسَعدٌ فَأَضحَوا في الجِنانِ وَأَوحَشَت مَنازِلُـــهُم وَالأَرضُ مِنــهُم بَلاقِــعُ
وَفَوا يَــومَ بَــدرٍ لِلرَسولِ وَفَوقَهُـم ظِلالُ المَنايــا وَالسُيوفُ اللَوامِـــعُ
دَعــــا فَأَجابوهُ بِحَــقٍّ وَكُلُّهُـم مُطيعٌ لَــهُ في كُلِّ أَمــرٍ وَسامِــعُ
فَمــا بَدَّلوا حَتّى تَوافَوا جَماعَــةً وَلا يَقطَــعُ الآجــالَ إِلّا المَصارِعُ
لِأَنَّهُمُ يَرجونَ مِنهُ شَفــاعَةً إِذا لَم يَكُن إِلّا النَبِيّينَ شافِــعُ
وَذَلِكَ يا خَيرَ العِبــادِ بَلاؤُنــا وَمَشهَدُنا في اللَهِ وَالمَوتُ ناقِعُ
لَنا القَدَمُ الأولى إِلَيكَ وَخَلفُنــا لِأَوَّلِنا في طاعَةِ اللَــهِ تابِــعُ
وَنَعلَمُ أَنَّ المُلكَ لِلَّــهِ وَحــدَهُ وَأَنَّ قَضــاءَ اللَهِ لا بُدَّ واقِــعُ

بدأ حسان قصيدته بالحديث عن قضاء الله الذي لا راد له، وقدره الذي لا يمكن دفعه،

---

(١) ينظر تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ، ٣/٧٢ .

(٢) الأبيات من الطويل وهي في السيرة النبوية لابن هشام ٤/٢٣٢، وفي ديوان حسان بن ثابت ١/٢٦٧ .

فقال:

أَلا يا لَقَومٍ هَل لِما حُمَّ دافِعُ وَهَل ما مَضى مِن صالِحِ العَيشِ راجِعُ[1]

وهو بهذه البداية يمهِّد للحديث عن شهداء بدر، وكأنه يُصبِّر نفسه ويثبتها حتى ترضى بقضاء الله، كما أنه يُرسِّخ لمبدأ الرضا بأقدار الله في نفوس المسلمين، ويحيي نوازع الإيمان في قلوبهم، حتى تخضع وتستسلم وتنقاد لأوامر ربها، في سكينة وطمأنينة يغرسها الرضا في أفئدتهم.

وفي السبيل إلى غرس هذه المعاني يؤثر حسان من طرق التوكيد ما يُمَكِّن لهذا المعنى في النفوس، فيستهل قصيدته بأداة التنبيه (ألا) التي يجذب بها القلوب، ويلفت من خلالها الأسماع، ويهيئ الأذهان؛ فتُقبِل بآذان صاغية، وقلوب متلهفة مشتاقة، وبذلك تكون على أهبة الاستعداد لما سيُلقى بعدها من أخبار، فتتمكن المعاني فضل تمكن، وتتأكد فضل تأكيد.

ثم إنه لما استدعى القلوب والعقول، ناداها بحرف النداء (يا) الذي ينادى به البعيد؛ زيادة في إيقاظ القلوب وجذبها، والغرض من هذا النداء هو إظهار الحسرة والحزن والفجع لمصاب القوم في أهليهم وذويهم، وكأن الشاعر لا تكفيه استغاثته بأداة التنبيه (ألا) التي هي بمثابة صرخة ينفث بها عن مشاعره المفعمة بالحزن؛ فالخطب الذي أَلَمَّ به عظيم، فضم حرف النداء (يا) إلى (ألا) وكلاهما من المقاطع الصوتية المفتوحة التي ترسل الصوت في امتداد متسع؛ لتعبر عن لواعج الأسى والحسرة التي ملأت جوانحه في هذا المقام[2].

وتعلو نبرة الحزن والحسرة من خلال استفهامين هما: (هل لما حُمَّ دافع؟ وهل ما مضى من صالح العيش راجع ؟)، والغرض من الاستفهام هو النفي، وكأنه بهذين الاستفهامين يُغلق كل باب من شأنه أن يزعزع العقيدة الإسلامية في النفوس، ويقطع كل حزن يتسرب إلى قلوب المسلمين ليحبط عزائمهم، ويُخِير قواهم؛ فالحزن غريزة إنسانية تعترض الإنسان دون إرادة منه، يتسبب عن حدوث ما لا يوافق هوى النفس ورغبتها الداخلية، ولذا فإن أقوى علاج له هو الاستسلام لقضاء الله والرضا به، ويقين المؤمن أنه مهما فعل فلن يستطيع تغيير أقدار الله، فأقداره جارية سواء أرضي الإنسان أم لم يرض، والأفضل للمؤمن أن يرضى؛ حتى يظفر بثواب أهل الرضا.

---

(١) حُمَّ الشيءُ وأُحِمَّ: أَي قُدِّرَ وقُضِي. لسان العرب، حمم، ١٥١/١٢ .

(٢) ينظر مقامات التعبير بـ(ألا) الاستفتاحية في شعر حسان بن ثابت (دراسة بلاغية) د/ دسوقي عبد المعز محمد محمد، صـ ٤٧٢٨ ، بحث مستل من حولية كلية اللغة العربية بجرجا ، العدد السادس، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

وقد استطاع حسان بن ثابت أن يرسخ عقيدة التسليم والرضا بقضاء الله في النفوس من خلال إيثار صيغة اسم الفاعل في قوله: (دافع، رافع)، والتوكيد مستفاد من دلالة اسم الفاعل على ثبوت الفعل في الزمن الماضي ودوامه؛ لدلالته على الحدث والحدوث وفاعله[1].

وبعد أن هيأ حسان القلوب لاستقبال أقدار الله بالرضا، بيَّن السبب لهذا التهيئة والباعث عليها بقوله:

تَذَكَّرتُ عَصراً قَد مَضى فَتَهافَتَت بَناتُ الحَشا وَانهَلَّ مِنّي المَدامِعُ[2]

فيذكر حسان أن مشاعر الحزن قد استدعى بعضها بعضًا من خلال التحقيق المستفاد من الفعل الماضي (تذكرت)؛ لأنه عاد بذاكرته إلى هذا الزمن الذي مضى، وولى بكل ذكرى جميلة فيه، وأكد لمعنى التعظيم لمكانته في قلبه من خلال تنكير المفعول (عصرًا) وتفخيمه، فهذا العصر كان فيه الأصحاب الذين عاشوا معه، وبمجرد تذكره لهذا العصر تهافتت الهموم على قلبه، وتزاحمت المصائب على نفسه، وانهمرت الدموع وكأنها تسابق بعضها بعضًا؛ متحسرة باكية على عصر الصحب الذي مضى.

وقد استعان حسان بالتوكيد في رسم هذه الصورة الحزينة التي أوجبت البكاء، فالفعل الماضي و(قد) الداخلة عليه في قوله: (قد مضى) أفاد تحقق المضي ووقوعه، وأثبت عدم عودة هذا الزمن، مما يساعد على توكيد الغرض الذي سعى حسان إلى تحقيقه في مطلع القصيدة، وهو الرضا والتسليم لقضاء الله، والخضوع المطلق لمشيئته، حتى فيما يكره المؤمن؛ لأن قضاء الله دائمًا يحمل في طيِّه الخير وإن بدا غير ذلك.

والعطف بالفاء في (فتهافتت) أشعر بشدة الشوق لهذا العصر الذي مضى، وسرعة تداعي الهموم والأحزان، فبمجرد أن رأى طيف العصر الذي ولَّى ومضى عندما تذكره تهافتت وتسارعت الهموم، وكأنها تسابق الأيام، فأحيت ذكرى هذا العصر نيران الشوق في قلبه،

---

(١) ينظر شرح التصريح علي التوضيح. تأليف / خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري، زين الدين المصري المعروف بالوقاد، ١١/٢ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م. وينظر أيضًا معاني الأبنية في العربية د/ فاضل صالح السامرائي صـ٤٠، دار عمار، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

(٢) الحشا: ما في البطن كله من الكبد والطحال وما تبع ذلك، وبنات الحشا: كناية عن الهموم والمصائب والبلايا. ينظر لسان العرب، حشا، ١٧٨/١٤ .

انهلَّ: انصَبَّ، وكل شيء انصب فقد انهل، يقال: انهل السماء بالمطر ينهل انهلالا وهو شدة انصبابه. لسان العرب، هلل، ٧٠١/١١ .

وكانت سببًا في ازدحام الهموم وتداعيها على نفسه، وحين آثر حسان الفعلين الماضيين: (تهافتت، انهلَّ) أجاد وصف الحالة النفسية التي عاشها حينما تذكر أحبابه الذي استشهدوا في بدر، فالقلب حينما يحزن لا يكتفي بالسبب الذي أحزنه فقط، بل يستدعي كل أحزانه السابقة لتؤازر حزنه الجديد، وأكد هذا المعنى بالكناية: (بنات الحشا) فهي كناية عن الهموم والمصائب والبلايا؛ مبالغة في تقرير شدة حزنه على الزمن الماضي، وتأكيد بالغ أثره الذي تركه في نفسه؛ لما للكناية من تحقيق وتثبيت المعنى؛ إذ هي كدعوى الشيء مقرونًا بالدليل والبرهان، واقتران الشيء بدليله وبرهانه أقوى في إثبات المعنى وتحقيقه وتقريره.

ثم إن تذكره لهذا الزمن قد استدعى دموعه فانهمرت بشدة، والشأن في الدموع هو السيلان والسقوط وليس الانصباب، فقد عبر عن شدة سيلان الدموع بانصباب الأمطار، واستعير الانصباب للسيلان على سبيل الاستعارة التصريحية، ولا يخفى ما لهذه الاستعارة من دور في تصوير مشاهد الحزن، وما أصاب الشاعر من هموم إثر تذكره لأحبابه الذي مضوا في هذا الزمن.

ثم يذكر حسان ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ بعض هؤلاء الشهداء الذين استشهدوا في غزوة بدر وهم: نفيع ورافع وسعد[1] فقال:

صَبـــابَــةُ وَجـــدٍ ذَكَّرتني أَحِبَّــةً وَقَتلى مَضَـوا فيهِم نُفَيـعٌ وَرافِـعُ[2]

وَسَعدٌ فَأَضحَوا في الجِنانِ وَأَوحَشَت مَنازِلُهُم وَالأَرضُ مِنهُم بَلاقِـــعُ[3]

وكان للتقديم دور في توكيد الكلام وتحقيقه؛ إذ قُدِّم المسند إليه (صبابة وجد) على الخبر الفعلي المثبت (ذكرتني)؛ مؤكدًا أن سبب تذكره لهذا العصر الذي عاش فيه مع أحبته هو شدة الشوق ولوعته وحرارته، ونوازع الحنين والمحبة لأصحابه الذين استشهدوا في بدر، كما يشعر التقديم بأن شوقه لأصحابه ممتد بامتداد العصور، لا ينقطع مهما مر عليه الزمن؛

---

(١) هو نفيع بن المعلى بن لوذان الأنصاري الخزرجيّ وهو أول قتيل في الإسلام من الأنصار، قتله رجل من مزينة من أجل ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب قبل الإسلام. ينظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ٣٦٩/٦ ـ تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٥ هـ . رافع بن المعلى بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم، وسعد بن خيثمة الأوسي. ينظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٢/٣، ٢٦٣ .

(٢) الصبابة: رقة الشوق وحرارته. لسان العرب، صبا، ٥١٨/١ .

(٣) بلاقع: الأرض القفار الخالية التي لا شيء بها. لسان العرب، بلقع، ٢١/٨ .

إشعارًا بحضور هؤلاء الصحب حضورًا لا يغيب عن الخاطر والوجدان، ويؤيد هذا المعنى تنكير المفعول (أحبة) مع تنوينه المشعر بتعظيم مكانة الصحابة في قلبه.

ويبرز التوكيد في صورة ذكر الخاص بعد العام في قوله: (وقتلى مضوا فيهم نفيع ورافع وسعد)؛ فإنه لما ذكر الشهداء بصفة العموم (وقتلى مضوا) خص بالذكر منهم نفيع ورافع وسعد؛ تنويهًا بشأنهم، وغاية فضلهم، ومكانتهم في قلبه؛ لأن ذكر الخاص منفردًا بعد دخوله في جنس العام كأنه ذكر مرتين؛ مرة عند دخوله في جنس العام، ومرة عند ذكر الخاص، وهذا إنما يكون لمزية فيه حتى كأنه ليس من جنس العام؛ تنزيلًا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات(١).

ويأتي الاقتباس كسبيل من سبل التأكيد على المعاني التي استدعاها حسان ـ ﷺ ـ، والتي تنادي كلها على هدف واحد: وهو التسليم والخضوع لأقدار الله، فقد اقتبس قوله: (فأضحوا في الجنان) من حديث أَنَسٍ ـ ﷺ ـ فقد روى أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ـ ﷺ ـ وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ، أَصَابَهُ غَرْبُ سَهْمٍ ـ سهم طائش ـ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي، فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ، وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ؟ فَقَالَ لَهَا: «هَبِلْتِ، أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى»(٢)، ولا يخفى ما لهذا الاقتباس من أثر في إبراز عِظَم الثواب الذي ظفر به من استشهد في بدر، وجزيل الأجر الذي وعدهم الله به، ومن جانب آخر فإن الاقتباس له وقع على نفس الشاعر؛ لأنه متى تيقن أن أحبابه الذين أقفرت الأرض منهم قد نزلوا في الآخرة منزلًا أعظم من منازل الدنيا، وأن الله قد أغدق عليهم من واسع عطائه، فإنه ساعتئذ تطمئن نفسه، ويهدأ قلبه، لما آل إليه حال أحبابه، وما أدركوه من نعيم، فيضحى شوقه إليهم غبطًا، وحزنه لفقدهم سرورًا وفرحًا.

وقد آثر حسان ـ ﷺ ـ الفعلين الماضيين: (أضحوا، أوحشت) في قوله: (فَأَضحَوا في الجِنانِ، وَأَوحَشَت مَنازِلُــهُم)؛ لما تفيده الجملة الفعلية الماضية من دلالة على تحقق ما آل إليه حال القوم من دخول الجنان، وما صار إليه حال منازلهم التي تركوها من وحشة، ثم التأكيد على شدة أثرهم وما خلفوه وراءهم من فراغ لا يُسد في القلوب بالجملة الاسمية: (وَالأَرضُ مِنهُم بَلاقِــعُ): أي خالية لا شيء فيها، فبعد أن كانت عامرة بالإخوة والأصحاب أصبحت بلاقعًا، وإيثار الجملة الاسمية في التعبير عن خلو الأرض من أهلها أفاد الثبوت والدوام؛ لأن هذا الفراغ الذي تركوه لا يستطيع أحد شغله، ثم تقديم الجار والجرور: (منهم)؛

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٢١٧/٣ .

(٢) صحيح البخاري، باب صفة الجنة والنار ١١٦/٨ رقم ٦٥٦٧ .

دلالة على منزلة هؤلاء الذين رحلوا، فقد كانوا جزءًا من هذه الأرض التي تركوها، لا تحلو الأيام إلا بوجودهم، ولا قيمة للزمان بعد خلوهم منه، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على شدة وقع هذا المصاب على قلب حسان ـ رضي الله عنه ـ، ومدى أثر فقد الأحباب عليه، إلا أنه لولا التسليم لقضاء الله ما استطاعت نفسه أن تتحمل.

ويعرِّج الشاعر على موقف الأنصار، وما كان من ردود أفعالهم حين تشاور الرسول ـ ﷺ ـ معهم بشأن الغزوة، فيقول:

وَفَوا يَومَ بَدرٍ لِلرَسولِ وَفَوقَهُم ظِلالُ المَنايا وَالسُيوفُ اللَوامِعُ
دَعـــا فَأَجابوهُ بِحَقٍّ وَكُلُّهُـم مُطيعٌ لَهُ في كُلِّ أَمــرٍ وَسامِعُ
فَما بَدَّلوا حَتّى تَوافَوا جَماعَـةً وَلا يَقطَعُ الآجـالَ إِلّا المَصـارِعُ

في هذه الأبيات تلميح بما كان من موقف الأنصار، يترأسهم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ حينما استشارهم رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أشيروا عليَّ أيها الناس ـ يقصد الأنصار ـ فقال سعد بن معاذ: "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لخضناه معك ما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرَّ به عينك؛ فَسِرْ بنا على بركة الله، فَسُرَّ رســول الله ـ ﷺ "(١).

وقد صور حسان بن ثابت ما حدث في بدر من خلال مشهد رائع، يظهر حال الصحابة يوم بدر، وكأن ظلال المنايا والسيوف فوقهم، كناية عن شجاعتهم واستبسالهم في المعركة، وتفانيهم في الدفاع عن رسول الله، وفي هذا تأكيد على شدة بأسهم وتضحيتهم وبذلهم أنفسهم في سبيل الله، مهما كلفهم ذلك، وبهذا يكونوا قد وفوا بوعدهم لرسول الله ـ ﷺ ـ وأقر الله بهم عين نبيه.

ويتابع حسان في ذكر حال أخرى من أحوالهم في قوله: (دعا فأجابوه بحق)، والعطف بالفاء هنا يؤكد سرعة إجابتهم دعوى رسول الله ـ ﷺ ـ وانقيادهم لأمره، فبمجرد أن استشارهم بشأن الغزوة سرعان ما وافقوه وأعطوه العهود والمواثيق على السمع والطاعة، ما تخلّف منهم أحد، وأكد هذا المعنى بالتقييد بالجار والمجرور: (له في كل أمر)؛ دلالة على طاعتهم لرسول الله ـ ﷺ ـ في كل ما يأمرهم به، وسرعة استجابتهم لكل ما يطلبه منهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٦٢/٣ .

وعمد حسان بن ثابت إلى التوكيد بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء في قوله: (ولا يقطع الآجال إلا المصارع)؛ ليؤكد معنى ما تضمنته الأبيات من تضحية الأنصار وثباتهم في المعركة بجوار رسول الله ـ ﷺ ـ ووفائهم بوعدهم له، وعدم تبديلهم العهد معه، حيث قصر قطع الآجال على المصارع، فمصرع المرء هو ما يقطع أجله وينهي حياته، كما شد من أزر التوكيد خروج هذه الجملة مخرج التذييل الذي جرى مجرى المثل؛ لأن لها حكمًا كليًا منفصلًا عما قبلها جرى مجرى الأمثال في الاستقلال وفشو الاستعمال(١).

وهكذا استطاع حسان بن ثابت أن يرسم مشهدًا بكائيًا حزينًا على هذا الزمن الذي مضى وولى، وقد عرَّج على عدة أزمنة تمثلت في زمن رغيد جميل، وآخر تكاثرت فيه الهموم وتتابعت الأحزان، وثالث طوى بين حناياه آلام الفراق ونوازع الشوق، ورابع يحيي بواعث الإيمان والاستسلام لقضاء الله وقدره(٢)، وهذه المشاهد استطاعت الكناية أن تصورها خير تصوير.

ثم ذكر حسان ـ رضي الله عنه ـ السبب الذي جعل الصحابة فعلوا ما فعلوا، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل رفع راية الإسلام، وهو أنهم يرجون شفاعة النبي ـ ﷺ ـ فقال:

لِأَنَّهُمُ يَرجونَ مِنهُ شَفاعَـــةً إذا لَم يَكُن إِلّا النَبِيّينَ شافِـــعُ

وَذَلِكَ يا خَيرَ العِبـــادِ بَلاؤُنا وَمَشهَدُنا في اللهِ وَالمَوتُ ناقِعُ

لَنا القَدَمُ الأولى إِلَيكَ وَخَلفُنا لِأَوَّلِنا في طاعَـــةِ اللهِ تابِـــعُ

وَنَعلَمُ أَنَّ المُلكَ لِلَّـــهِ وَحدَهُ وَأَنَّ قَضـــاءَ اللهِ لا بُدَّ واقِـــعُ

وآثر من طرق التوكيد (أنَّ)، واسمية الجملة، وأسلوب القصر؛ ليؤكد صدق رغبة الصحابة في شفاعة النبي ـ ﷺ ـ لهم يوم القيامة، وأن هذا الرجاء هو الذي ساقهم إلى التضحية والبذل؛ لأن شفاعة النبي محمد ـ ﷺ ـ هي أرجى ما يرجوه العباد، وهي أول الشفاعات يوم القيامة؛ لذا كان التنكير في لفظ (شفاعة) بغرض التعظيم، وأما إيثار القصر بالنفي والاستثناء في شفاعة الأنبياء: (إذا لم يكن إلا النبين شافع) مع أن هناك من يشفع معهم كالملائكة والصالحين من المؤمنين؛ فهو على سبيل القصر الحقيقي الادعائي؛ مبالغة في قصر الشفاعة على الأنبياء، وهذا ما يتلاءم مع هول الموقف يوم

---

(١) ينظر المطول لسعد الدين التفتازاني صـ٢٩٤ ، تحقيق/ عبد الحميد هنداوى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤ هـ، ٢٠١٣ م.

(٢) ينظر غزوة بدر في شعر حسان بن ثابت "دراسة موضوعية وفنية" د/ عصام حمدي عطية ضيف صـ٣٢٩ .

القيامة وشدته على النفوس؛ إذ الكلمة التي تتلفظها الألسنة ساعتها: نفسي نفسي، كل أحد يطلب النجاة لنفسه، لصعوبة الموقف، وشدة خطبه ووطأته على الناس.

ثم يشير حسان إلى أن ما حدث في غزوة بدر من استشهاد لبعض الصحابة هو أمر جلل، وخطب عظيم، فقال:

وَذَلِكَ يا خَيرَ العِبـــادِ بَلاؤُنا وَمَشهَدُنا في اللهِ وَالمَوتُ ناقِعُ[1]

واستعمل اسم الإشارة للبعيد (ذلك)؛ ليؤكد على عِظَم هذا البلاء على النفوس، وشدة وقعه على القلوب، ولولا تثبيت الله لهم لتصدعت قلوبهم من ألم الفراق، كما أفادت اسمية الجملة (وذلك بلاؤنا) الثبوت والدوام، وأكدت شدة وقع البلاء على نفوس المؤمنين، وعظم أثره في قلوبهم.

وقد برز التوكيد أيضًا في صورة الاعتراض بجملة النداء في قوله: (يا خير العباد)، فأكد المعنى السابق وهو رجاء الصحابة شفاعة النبي ـ ﷺ ـ يوم القيامة؛ فإنه لما كان خير العباد وأفضلهم عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فضَّله الله بكونه أول شافع وأول مشفع، فكان الاعتراض طريقًا لتأكيد مضمون الكلام وترسيخه وتقريره، ووجه بلاغة الاعتراض "حسن الإفادة مع أن مجيئه مجيء ما لا معول عليه في الإفادة فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لا ترتقبها"[2].

كما جاء التوكيد بالجملة الاسمية: (الموت ناقع)، فأفادت الثبوت والدوام، وأكدت حقيقة تطابق الواقع؛ وهي كون الموت هو النهاية الحتمية لكل مخلوق، وهذه الجملة أكدت شدة وقع مصاب القوم في أحبابهم، والمبالغة في وصف شدته، وأثره على النفوس؛ ففراق الأحبة أمر شاق ولا تتحمله القلوب.

ويتابع حسان ـ رضي الله عنه ـ في ذكر فضائل الأنصار، وأن القوم عن بكرة أبيهم دائمًا في المقدمة خلف رسول الله ـ ﷺ ـ وأن آخرهم يتبع أولهم، فحين قال سعد بن معاذ مقالته في نصرة النبي ـ ﷺ ـ تبعه قومه جميعا لم يتخلف أحد منهم، وقال حسان في هذا:

لَنا القَدَمُ الأولى إِلَيكَ وَخَلفُنا لِأَوَّلِنا في طاعَةِ اللهِ تابِعُ

وقد اتخذ التوكيد هنا طريق التقديم؛ حيث قدم الجار والمجرور (لنا)؛ ليؤكد تفاني الأنصار في الوقوف بجانب النبي ـ ﷺ ـ والدفاع عنه، ودعمه بشتى السبل، ومناصرته ما

---

(١) موت ناقع: دائم. ينظر لسان العرب ـ نقع ـ ٣٦٠/٨ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ٢١٤/٣، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة.

استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، كما جاء العطف بالواو يزيد من تقرير المعنى وتوكيده؛ حيث عطف جملة (وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع) على سابقتها؛ للتوسط بين الكمالين، مما ساعد على تثبيت المعنى وتحقيقه، وتقرير مضمونه؛ لأنه إذا كان آخرهم يتبع أولهم في الطاعة وكان لهم السبق في نصرة رسول الله ـ ﷺ ـ فإن وجهتهم جميعهم واحدة، وهدفهم واحد، هو الدفاع عن النبي ـ ﷺ ـ ونصرة دينه.

والتقديم في (لأوَّلنا) و(في طاعة الله) أفاد مزيدًا من تأكيد مضمون الكلام؛ فدل التقديم في: (لأوَّلنا) على شدة متابعة القوم لقائدهم، ومدى اتحادهم واتفاق وجهتهم، كما دل التقديم في قوله: (في طاعة الله) على شدة إخلاصهم، وأن طاعة الله هي غايتهم ومنتهى آمالهم.

وينهي حسان ـ رضي الله عنه ـ قصيدته بالتوكيد على المعاني التي أراد غرسها في القلوب، وتثبيتها في النفوس بما يتلاءم مع بدايتها فقال:

وَنَعلَمُ أَنَّ المُلكَ لِلَّـــهِ وَحدَهُ وَأَنَّ قَضاءَ اللهِ لا بُدَّ واقِعُ

فقد تحدث عن التسليم لقضاء الله والاستسلام لقدره، وهذا ما يجب أن يعتقده المؤمن ويوقن به، فقضاء الله واقع شاء العبد أم أبى، لكنه إذا وقع فتلقاه العبد بالرضا والتسليم جرى قدر الله عليه في سكينة وطمأنينة، وظفر العبد بالأجر والمثوبة، أما إذا وقع القضاء فتلقاه العبد بالسخط وعدم القبول جرى قدر الله وحُرِم العبد الأجر والثواب، وعبر حسان صدق معتقد الصحابة بالفعل المضارع (نعلم) الذي يدل بصيغته على تجدد هذا الاعتقاد واستمراره؛ مما يؤكد ثباتهم على معتقدهم، وصمودهم الذي لا يضاهى.

وقد ناسب هذا المقام استعمال أكثر من طريق للتوكيد حين قال: (ونعلم أنَّ الملك لله وحده) فآثر من طرق التوكيد (أنَّ)، واسمية الجملة، ولام الاختصاص، والتوكيد المعنوي، في قوله: (ونعلم أنَّ الملك لله وحده) وهذا مما يقرر المعنى ويحققه؛ لأنه يلائم الحالة النفسية للشاعر، فمقام فقد الأحبة يصيب النفس باليأس والقنوط، ويبعث فيها دواعي الحزن والألم، ويستثير مواطن الحنين والشوق، وقَلَّ من يثبت في هذا المقام؛ لذا احتاج إلى التوكيد الذي يُثَبِّت النفوس على معتقدها، ويعيد العقول إلى رشدها وصوابها، ويردها إلى الأصل الذي عليه مدار الحياة، وهو أن الله هو المالك لكل شيء، المتصرف فيه كيف يشاء.

ثم انتقل من معنى كون الملك لله إلى الرضا التام والاستسلام المطلق لقضائه فقال: (وأنَّ قضاء الله لا بد واقع) فكان للتوكيد بـ(أنَّ) واسمية الجملة دور في تقرير مضمون الكلام، وتحقيق الغرض المسوق له، فاستشهاد بعض الصحابة في بدر هو قضاء الله الذي

لا يمكن رده أو تغييره، والذي ينبغي على النفس هو الرضا والتسليم لأقدار الله؛ ليكون ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما أضفى خروج الشطر الثاني من البيت مخرج التذييل الذي جرى مجرى المثل مزيدًا من تحقيق الكلام وتقريره وتثبيته في النفوس، مما يمضي بها إلى الإذعان والامتثال لأقدار الله.

المبحث الرابع

التوكيد في مقام هجاء الكفار وتعديد قتلاهم

****

يعتمد غرض الهجاء في المقام الأول على تعداد مثالب الخصم ومساوئه، ونفي المكارم والمحاسن عنه، وتجريده من كل فضيلة(١)، وحسان في هجائه " لم يكن يهجو قريشا بالكفر وعبادة الأوثان، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هُزِموا فيها ويعيّرهم بالمثالب والأنساب. وهذا طبيعي لأنهم كانوا مشركين فعلا، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغا "(٢). وقد روي أن النبي ـ ﷺ ـ قال لحسان: "اهْجُهُمْ ـ أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ"(٣).

وكان الهجاء في شعر حسان متصلًا بنغمة الفخر، ويركز ـ في غالبه ـ حول الجبن والهروب من المعركة، وما يتبع ذلك من الذلة والمهانة، ولم يكن يفحش في هجائه، وإنما كان هجاء الأبطال للأبطال(٤).

وقد برزت طرق التوكيد ووسائله في مقام هجاء الكفار في شعر حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ في ثوب مختلف عن المقامات السابقة؛ حيث قَلَّ استعمال حسان لطرق التوكيد في هذا المقام مقارنة بالمقامات السالفة الذكر، ولعل هذا يدل على أن هذه المعايب والمساوئ قد ذاعت واشتهرت حتى صارت أمرًا معروفًا لا ينكره ولا يشك فيه أحد، وهذا أبلغ في الذم وأقذع في الهجاء.

وبرز ذلك في قول حسان ـ رضي الله عنه ـ في هجاء بني أمية(٥):

قَتَلْنا أُمَيّاً يَومَ بَدرٍ عَنْوَةً وَبُعداً لَهُ مِن هالِكٍ لَم يُوَسَّدِ
وَأَفلَتَ مِنّا بَعدَما طالَ يَومُهُ أُبَيٌّ عَلى مَوّارَةِ الضَبعِ جَلعَدِ
وَفَرَّ حَكيمٌ خَشيَةً مِن رِماحِنا عَلى سابِحٍ غَربٍ بَعيدِ التَرَدُّدِ

---

(١) ينظر جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ٢٦/٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربي، د/ شوقي ضيف، ٧٨/٢ ، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٠ – ١٩٩٥ م.

(٣) صحيح البخاري، باب ذكر الملائكة، ١١٢/٤ .

(٤) ينظر حسان بن ثابت شاعر الرسول. د/ سيد حنفي حسنين، صـ١٨١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٣م.

(٥) الأبيات من الطويل وهي في ديوان حسان ٤١٧/١ .

وَحانَ أَبو العاصي وَعَمرٌ كِلاهُما وَعُتبَةُ في أَشياعِهِ وَابنُ الإِسوَدِ
وَشَيبَةُ إِذ يَعلوهُ بِالسَيفِ مُقدِماً عُبَيدَةُ لا يَألو بِغَضبٍ مُهَنَّدِ
فَكَيفَ رَأَيتُم يَومَ بَدرٍ ضِرابَنا وَإِقدامَنا وَالخَيلُ لَم تَتَبَدَّد
بِكُلِّ حُسامٍ أَخلَصَتهُ قُيونُهُ بِأَيدي رِجالٍ مَجدُهُم غَيرُ قُعدُدِ
مِنَ السِرِّ مِن أَولادِ عَمروِ بنِ عامِرٍ يُنادونَكُم في كُلِّ مَندىً وَمَشهَدِ

في هذه الأبيات يشن حسان بن ثابت حربًا لسانية على الكفار؛ فطالما نطقت ألسنتهم بأقذع الألفاظ التي بغيتها تثبيط النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه عن دعوتهم، وطالما حاربوهم بشتى ألوان الحروب النفسية والجسدية، فكان لزامًا أن يكون هناك من ينافح عن رسول الله ـ ﷺ ـ وصحابته الكرام، ويدافع عنهم بنفس الطريقة التي حوربوا بها؛ ولما كانت قريش أرباب الفصاحة والبيان، فقد نذر حسان ـ رضي الله عنه ـ نفسه لرد هجماتها اللسانية التي تلعب على الوتيرة النفسية، متخذًا من الهجاء طريقًا لإذلال أنوفهم، وكسر شوكتهم، وإضعاف العامل النفسي الذي هو أساس النصر.

ولم يكن حسان في هجائه مقذعًا، ولم يخرج عن حدود الأدب والذوق كما خرج بعض الشعراء في هجائهم، أما في هجاء قريش فقد كان حكيمًا حنكًا؛ لقرابة الرسول ـ ﷺ ـ ونسبه فيهم، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: استأذن حسان النبي ـ ﷺ ـ في هجاء المشركين قال: " كَيْفَ بِنَسَبِي؟ " فقال حسان: " لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعَرَةُ مِنَ العَجِينِ"[(١)]؛ لذا أمره رسول الله بالذهاب إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لكونه أعلم العرب بالأنساب[(٢)].

وقد ناسب استعمال أساليب التوكيد مقام الهجاء، فاعتلاه حسان كأجود ما يكون من الفرسان؛ لينتصر في هذه الحرب النفسية، التي تجعل من قريش مضرب المثل في الضعف والهزيمة وعدم الصمود أمام قوة المسلمين، فقال حسان بن ثابت:

قَتَلنا أُمَيّاً يَومَ بَدرٍ عَنوَةً وَبُعداً لَهُ مِن هالِكٍ لَم يُوَسَّدِ[(٣)]

وإذا كان المقام يحتاج إلى التوكيد فإن أول ما استند عليه حسان في ذلك الشأن هو الفعل الماضي؛ وهذا حاله في كل مطالب البحث؛ لأن الفعل الماضي هو الذي يتطابق مع الواقع؛ إذ يصور أو يحكي أحداثًا وقعت بالفعل، فالتعبير به في هذا المقام هو الأصل، وكان إيثار

---

(١) صحيح البخاري، باب من أحب ألا يسب نسبه ، ١٨٥/٤ .

(٢) ينظر شاعر النبي حسان بن ثابت الأنصاري لعبد الله أنيس الطباع صـ٤٠.

(٣) عنوة: قهرًا وغلبة وذلًّا. لسان العرب، عنا، ١٠١/١٥ . البُعد: الهلاك. لسان العرب، بعد، ٩١/٣ .

حسان للفعل الماضي تأكيدًا لمضمون كلامه في الأذهان، وترسيخًا لمعناه في الصدور، وتقريرًا لمغزاه في القلوب، فتارة يقول: (قتلنا)؛ ليستأصل شأفة الكفار من جذورها، ويسلب منهم قوتهم التي ذاعت في الجزيرة العربية، وينتزع منهم كل ما من شأنه تثبيت أصولهم؛ فالقتل كما يُنهي الحياة الجسدية للأفراد، فإنه يُنهي الحياة النفسية للشعوب؛ لما يكتنفه من الذل والانكسار والخضوع.

ثم يؤكد أن القتل لم يكن جزافًا أو اعتباطًا بل كان لأشراف قريش وفلذات أكبادها، وعلى رأسهم زعيم الكفر: أمية بن خلف، الذي كان يُعذِّب بلالًا بعد أن عَلِم بإسلامه، فلما كان يوم بدر لَقِيه فقال: لا نجوتُ إن نجا، ثم أخلف إليه أحدهم السيف فصاح صيحة انتهت حياته على إثرها(١).

وتارة أخرى يستعين حسان بالفعل الماضي في قوله: (وأَفْلَت) الذي دل على تحقق الإفلات وثبوته، وتقرر وترسخ معنى الهزيمة من خلاله؛ لأنه يدل على الحالة النفسية التي وصل إليها الكفار بعدما رأوا قوة المسلمين، واستماتتهم في الدفاع عن رسول الله ـ ﷺ ـ، وقد تطرق حسان لواقعة الإفلات في قوله:

وَأَفلَتَ مِنّا بَعدَما طالَ يَومـُهُ أُبَيٌّ عَلى مَوّارَةِ الضَبعِ جَلعَدِ(٢)

كما استعمل الفعل الماضي (طال)؛ ليحقق مضمونه، ويقرر أن إفلات أبي بن خلف كان بعد قتال دام وطال، ويؤكد على استسلامه وإعلانه هزيمته عندما رأى بسالة المسلمين في المعركة، وهذا أبلغ في تحطيم الروح المعنوية، وبث روح الهزيمة في نفوس الكفار؛ إذا علموا أن زعماءهم آل بهم الحال إلى الفرار والإفلات بهذه الطريقة، فكيف يكون الحال بمن هو دونهم في الشجاعة والقتال؟!

وتارة ثالثة يعمد حسان ـ رضي الله عنه ـ إلى الفعل الماضي (فَرَّ) حين ذكر موقف حكيم بن حزام في قوله:

---

(١) ينظر السيرة النبوية لابن هشام ١٨٠/٣ .

(٢) يقصد أبيّ بن خلف الذي قتله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أحد. ينظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، القضاعي الكلبي المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠، ١٩٨٠م.
والناقة الموَّارة: سهلة السير سريعة. ينظر لسان العرب، مور، ١٨٦/٥ .
والجلعد: الصلب الشديد. ينظر لسان العرب، جلعد، ١٢٨/٣ .

وَفَرَّ حَكيمٌ خَشيَةً مِن رِماحِنا عَلى سابِحٍ غَربٍ بَعيدِ التَرَدُّدِ[1]

وهذه المرة يستعمل حسان الماضي من الفرار، وهو بهذا يريد أن يصور هزيمة المشركين بكل طريقة تذل أنوفهم، وبكل سبيل يكسر شوكتهم، وينكس رؤوسهم، فلا ترفع لهم راية بعدها، ولا تكون لهم كلمة بين القبائل، وهذا الأمر أشد على النفوس وأقسى من الموت؛ لأن القتال الذي يُحوج المحارب إلى الفرار إنما يدل على شجاعة الخصم وبسالته، وشدة قتاله وضراوته، فكيف إذا كان الفرار على فرس سريع كثير العدو ؟

كما برز التوكيد في صورة التعليل في قول حسان ـ رضي الله عنه ـ: (خشية من رماحنا)، وقد ذكر صاحب الكليات أن التوكيد بطريق التعليل أقوى من التأكيد بالتكرار المجرد[2]؛ لذا فإن التعليل لفرار المشركين وذكر سببه دليل على قوة المسلمين، وشدة بأسهم، فقد ألجأت رماح المسلمين الكفار إلى الفرار، وهذا يدل على شجاعة المسلمين وبسالتهم وجرأتهم.

ولا يزال حسان بن ثابت يتخذ من الفعل الماضي سبيلًا لزعزعة صفوف المشركين، وإضعاف الروح المعنوية لديهم، فيستعمل الماضي (حان) في قوله: **وَحانَ أَبو العاصي وَعَمرٌ كِلاهُما وَعُتبَةُ في أَشياعِهِ وَابنُ الإِسوَدِ**[3]

وَشَيبَةُ إِذ يَعلوهُ بِالسَيفِ مُقدِماً عُبَيدَةُ لا يَألـــو بِغَضبٍ مُهَنَّـدِ

والحين هو الوقت من الزمان، والمراد به هنا: آن[4] وجاء الدور عليهم، وأخذ يعدد أسماء بعض أهل الشرك الذين قتلوا في غزوة بدر، فذكر العاص بن هشام، وعمرو بن هشام، وعتبة وابن الأسود، وعندما يؤثر حسان الفعل (حان) يؤكد مضمونه، ويقرر من خلاله النهاية الحتمية لأهل الشرك، والعاقبة المأساوية التي تنتظرهم، وأن المسلمين سيستأصلون

---

(١) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد الأسدي بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، من أشراف قريش في الجاهلية، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، عاش مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: والذي نجاني يوم بدر. ينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة٢/٥٨ ، وسير أعلام النبلاء ٣/٤٤ . والفرس السابح: إذا كان حسن مد اليدين في الجري، ينظر لسان العرب، سبح، ٢/٤٧٠ ـ سبح ، وفرس غرب: كثير العدو. لسان العرب، غرب، ١/٦٤٠ .

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي صـ٢٦٨ .

(٣) قُتل يوم بدر عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربعية وأبو جهل بن هشام وزمعة بن الاسود وأبو البخترى العاص بن هشام وغيرهم. ينظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٩٢ .

(٤) ينظر لسان العرب، حان، ١٣/١٣٤ .

شأفتهم واحدًا تلو الآخر، حتى يفنوهم عن بكرة أبيهم.

ولجأ حسان إلى التوكيد بطريق الجملة الاسمية حين تعرض لمقتل شيبة بن ربيعة في قوله: (وَشَيبَةُ إذ يَعلوهُ بِالسَيفِ مُقدِماً عُبَيدَةُ) فيقرر من خلال الجملة الاسمية وما تفيده طبيعة دلالتها من الثبوت والدوام تلك المشادة القتالية بين شيبة وعبيدة، ويصور هذا المشهد من خلال المضارع (يعلوه) الذي يصف اشتعال المعركة واحتدامها بين الطرفين، وكأنها تدور أمام المخاطب ويراها بعينيه، ويرقب ما يقوم به كل خصم أمام الآخر، كما يشعر المضارع بشدة الخزي الذي لحق شيبة؛ حيث دامت واستمرت الطعنات من سيف عبيدة، ولاحقته فما استطاع منها فرارًا.

ثم أتبع حسان تقرير مضمون الكلام بالجملة الحالية (لا يَألو بِغَضبٍ مُهَنَّـدِ) وهي تؤكد حال عبيدة أثناء القتال، حيث بلغت الغضبة لله ولدينه مبلغًا عظيمًا، فأثخن الجراح في شيبة، ولم يُقَصِّر لدرجة أنه أصيب بجراح عظيمة.

ويعمد حسان إلى الاستفهام ليقرر من خلاله الحقيقة التي رآها المشركون يوم بدر رأي العين، ويؤكد على شجاعة جيش المسلمين، وقوتهم، وبسالتهم في أرض القتال، فيقول:

فَكَيفَ رَأَيتُم يَومَ بَدرٍ ضِرابَنـا وَإِقدامَنا وَالخَيـلُ لَـم تَتَبَدَّد(١)

والاستفهام بالإضافة إلى ما يفيده من التقرير والتوكيد لقوة المسلمين وشجاعتهم، فإنه ـ من جانب آخر ـ يحمل معني التهكم والسخرية من المشركين، وما آل إليه حالهم حين وقفوا أمام المسلمين، وكأني بحسان ـرضي الله عنهـ ـ يتمثل حديث رسول الله ـﷺ ـ حين ذكر مصارع القوم ووجدها الصحابة كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ لم يفارق أحدهم موضعه، فقال: " يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ وَيَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا؟ قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا"(٢).

ومن جانب ثالث فإن الاستفهام يحمل بين طياته وعدًا ووعيدًا، وتحذيرًا وتهديدًا لكل من يخطر بباله الوقوف أمام المسلمين، أو التعرض لهم بأي لون من ألوان الأذى، لأنهم إذا رأوا هذه القوة والشجاعة فإن من يتصدى لهم يحكم على نفسه بالهلاك والخسران.

ويقرر لهذا المعنى بالجملة الحالية الاسمية في قوله: (والخيل لم تبدد)؛ فثبات الخيل في المعركة مستمد من ثبات فرسانها، وقوة إقدامها على القتال منبعه مَن اعتلاها ومَن يقود

---

(١) التبديد: التفريق، وجاءت الخيل بداد: أي متفرقة متبددة. لسان العرب، بدد، ٧٨/٣.

(٢) صحيح مسلم ٢٢٠٢/٤ رقم ٢٨٧٣ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.

زمامها؛ لذا فإن تفرّق الخيل أمر محال، وقد تأكد ثباتها ورسوخها في أرض المعركة أمام من صال وجال.

ويختم حسان بن ثابت أبياته بالفخر بأجداده، وبالمجد الذي صنعوه، فيقول:

بِكُـــلِّ حُســـــامٍ أَخلَصَتهُ قُيونُـــــهُ بِأَيدي رِجــالٍ مَجدُهُم غَيرُ قُعدُدِ[1]

مِنَ السِرِّ مِن أَولادِ عَمروِ بنِ عامِــرٍ يُنادونَكُم في كُلِّ مَندىً وَمَشهَــدِ

فيؤكد حسان بن ثابت من خلال تقديم الجار والمجرور (بكل حسام) على أصالة السيوف التي تبارى بها جيش المسلمين، وأن السبب في قوتها هو إخلاص صانعيها، وصدق وشجاعة المحاربين بها، وهو بهذا يقرر أن الإخلاص في كل شيء هو منبع النجاح، وسر الفلاح.

كما يؤكد من خلال تقديم الجار والمجرور في الشطر الثاني: (بأيدي رجال) على قوة المسلمين، وأن شجاعتهم كانت سببًا في النصر، ولا عجب في هذا، فهؤلاء رجال لهم مجد عريض بين القبائل، ومحاسنهم ذاعت بين الناس، ومآثرهم خلّدت أمجادهم، ومن هؤلاء الذين يفتخر بهم جده عمرو بن عامر[2].

كما برز التوكيد في البيت الثاني من خلال الإيضاح بعد الإبهام؛ إذ يعد البيت الثاني تفصيلًا للبيت السابق؛ فبعد أن افتخر حسان ـ بأمجاد أجداده على سبيل الإجمال والإبهام، قام بالتفصيل والإيضاح؛ فذكر جدَّه الرابع عشر الذي كان شديد الفخر به وهو (عمرو بن عامر)، وهذا يفيد تقرير المعنى في ذهن السامع بظهوره في صورتين مختلفتين، وكأنه ذُكِر مرتين؛ مرة على طريق الإجمال والإبهام، وأخرى على طريق التفصيل والإيضاح، فصار كعرض الحسناء في لباسين، ولأن الإشعار بالشيء إجمالًا يقتضي التشوق له، والشيء إذا جاء بعد تشوق وتطلع وقع في النفس فضل وقوع، وتمكن منها خير تمكن؛ لأن الحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب[3].

---

(١) القيون: جمع قَيْن وهو الحداد والصانع. لسان العرب، قين، ٣٥٠/١٣ . والمراد لهم مجد عريض طويل؛ لأن الرجل القعدد: القريب من الجد الأكبر. لسان العرب، قعد، ٣٦١/٣ .

(٢) عمرو بن عامر هو الجد الرابع عشر لحسان بن ثابت وكان شديد الفخر به؛ فهو ملك جاهلي من التبابعة، وكان له من الحدائق ما لا يحاط به، فكانت الجارية تمشي وعلى رأسها مكتل فيمتلئ فاكهة من غير أن تمس منه شيئًا. ينظر الأعلام لخير الدين للزركلي ٨٠/٥ .

(٣) ينظر شروح التلخيص ٢١٠/٣ ، والأطول للعصام ٢ /٨٢، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .

وإنما ناسب الفخر في ختام القصيدة مقام الهجاء؛ لما يكتنف الفخر من معاني الإذلال لأنفس المهجويين، وكسر أنوفهم، وإضعاف شوكتهم، وبث الرعب والفزع في قلوبهم، وهذا من شأنه إبراز هشاشة الخصم وعجزه، وتجريده من الفضائل أمام الآخر، وهذا يعد من قبيل الهجاء.

إن حسان بن ثابت يروم من خلال هجائه المشركين إلى إضعاف العامل النفسي لديهم، والروح المعنوية عندهم، وإهزال دوافع الصد والعداء الموجهة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين، ولا شك أن العامل النفسي هو المحرك للإنسان، وإضعافه أقصر طريق للهزيمة؛ لأن الألم النفسي قد يتفوق على الألم الجسدي، وأحيانًا يتسبب الألم النفسي في ألم جسدي، وها هو حسان يتعرض بألفاظه لهذا الوتر الحساس، ويقذفهم بكلماته التي تبث الرعب في صفوفهم، وتزعزع أركانهم، وظهر ذلك في هجاء حسان لبني جُمح[1] ومن أصيب منهم يوم بدر فقال[2]:

جَمَحَت بَنو جُمحٍ لِشِقوَةِ جَدِّهِم إِنَّ الذَليـلَ مُوَكَّلٌ بِذَليـلِ[3]
قُتِلَت بَنو جُمـــحٍ بِبَـــدرٍ عَنوَةً وَتَخاذَلوا سَعياً بِكُلِّ سَبيـلِ
جَحَدوا الكِتابَ وَكَذَّبوا بِمُحَمَّـــدٍ وَاللَهُ يُظهِرُ دِينَ كُلِّ رَسولِ
لَعَنَ الإِلَهُ أَبـــــا خُزَيمَةَ وَابِنَهُ وَالخالِدينَ وَصاعِدَ بنَ عَقيلِ

وفي هذه الأبيات لا يزال حسان ـرضي الله عنهـ ـ في حربه اللسانية التي أعلنها على المشركين من خلال هجائه مؤثرًا طرق التوكيد وأساليبه المتنوعة، وقد آثر الفعل الماضي (جمحت) في مطلع البيت، وهو يشعر بالخزي والذل والهوان الذي لحق ببني جمح؛ إذ هاموا على وجوههم مسرعين في غير رجوع؛ لِمَا رأوا من بأس جيش المسلمين وشجاعتهم، فلم يحالفهم الحظ في المعركة؛ حيث كان نصيبهم فيها الشقاء والبؤس والعناء.

---

(١) هم بطن من بطون قريش وهم بنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر. ينظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٣/١ .

(٢) الأبيات من بحر الكامل، وهي في السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٠/٣ ، وفي ديوان حسان ٤٣٥/١ ، مع اختلاف يسير في الرواية بينهما.

(٣) جمحت، أي: ذهبت مسرعة ولم ترجع، والجموح من الرجال: الذي يركب هواه فلا يمكن رده، وكل شيء مضى لشيء على وجهه، فقد جمح به. ينظر لسان العرب، جمح، ٤٢٦/٢ . والجَدّ: الحظ والبخت، يقال: فلان ذو جد في كذا أي ذو حظ. ينظر لسان العرب، جدد، ١٠٧/٣ .

وإيثار المسند (جمحت) والمسند إليه (بنو جمح) فيه تقرير لفرار بني جمح من المعركة، وتأكيد على هزيمتهم الساحقة، فهو مما يلحق بالجناس؛ إذ جمع الاشتقاق بينهما، فكلاهما من أصل واحد وهو (الجماح)، وهذا مما يؤصل لشدة الهزيمة المعنوية والحسية التي آل إليها حالهم عندما رأوا بسالة المسلمين في ميدان القتال.

ويؤكد حسان ـ ﷺ ـ مضمون كلامه بالتعليل باللام في قوله: (لِشِقوَةِ جَدِّهِم)، فيُظهِر أن السبب في فرارهم هو جُبنهم وبؤس حظهم، ويقرر هذا المعنى بعلة أخرى في الشطر الثاني من البيت: (إِنَّ الذَليـلَ مُوَكَّلٌ بِذَليــلِ)، فهذه الجملة علة للعلة المذكورة في الشطر الأول: (لِشِقوَةِ جَدِّهِم)؛ لأن فرار من أصيب من بني جمح من المعركة يعد سُبَّة تلاحقهم على مدار الأزمان، وخزيًا وعارًا لا يفارقهم؛ لذا تنوعت طرق التوكيد هنا؛ فجاء التوكيد بـ(إنَّ) واسمية الجملة مقررًا لمعاني الذلة والاستكانة والضعف والهوان الذي لحق بهم، كما كان لترك العطف بين شطري البيت لكمال الاتصال أثر في توكيد المعنى وتقريره، وتحقيق مغزاه؛ حيث نزلت جملة (إن الذليل موكل بذليل) منزلة التوكيد لقوله: (لِشِقوَةِ جَدِّهِم)، بالإضافة إلى ما تضمنه الشطر الثاني من التذييل الجاري مجرى المثل للشطر الأول؛ إذ هما في مضمون واحد، ومعنى متقارب، مما ساهم في تعميق أثر التوكيد في تقرير المعنى المراد.

ثم يقرر حسان ـ ﷺ ـ أن ما أصاب قبيلة بني جمح لم يقف عند حد إثخان الجراح فيهم فحسب؛ مما ألجأهم إلى الهروب من ميدان المعركة، بل إن يد المسلمين امتدت لتطأهم بالقتل، وأوضح ذلك من خلال كمال الاتصال في قوله:

قُتِلَت بَنو جُمــحٍ بِبَـدرٍ عَنوَةً وَتَخاذَلوا سَعياً بِكُلِّ سَبيــلِ

حيث كان هذا البيت بمنزلة البيان والإيضاح للبيت الأول، فترك العطف بينهما، وبناء الفعل الماضي (قُتلت) للمجهول؛ تفخيمًا وتهويلًا لأمر القتل، وتهوينًا وتحقيرًا من شأن المقتول وهم قبيلة بني جمح؛ إمعانًا في إلحاق الخزي والنكال بهم، وتقريرًا لهزيمتهم، ويؤيد هذا التأكيد قوله: (عنوة) الذي يوحي بشدة ما نزل بهم من القهر والضعف، وأن قتلهم كان كسرًا لأنوفهم، وإذلالًا لهم بين القبائل، كما آثر الماضي (تخاذلوا) تقريرًا لضعفهم، وتوكيدًا لانهزامهم شر هزيمة؛ إذ لم ينهزموا في المعركة مع صمودهم واستماتتهم في القتال، وإنما انهزموا بفرارهم، فكان الجبن والخوف قائدهم للنجاة بأنفسهم، وأكد هذا المعنى التقييد بالحال (سعيًا)، فقد طرقوا كل سبل التخاذل، وسعوا بكل سبيل إلى الهزيمة، ولم يخطر ببالهم ما سيلحقهم من عار بسبب فرارهم، وإنما سلكوا كل طريق للنجاة بأرواحهم، بغض النظر عما يترتب على هذا الهروب.

ثم أخذ حسان بن ثابت في ذكر بعض أفعال بني جمح التي من أجلها استحقوا ما نزل بهم من خزي وهزيمة فقال:

جَحَدوا الكِتَابَ وَكَذَّبوا بِمُحَمَّـدٍ وَاللهُ يُظهِرُ دِينَ كُلِّ رَسولِ

فيترك العطف بين هذا البيت والبيت السابق؛ إذ لا يزال بصدد البيان والإيضاح والتفصيل لأسباب هزيمتهم، وفرارهم، ويظل ديدن حسان ـ رضي الله عنه ـ إيثار الفعل الماضي، فقد عبر به في قوله: (جحدوا، وكذبوا) مقررًا موقف بني جمح من كلام الله، ومبعث رسوله ـ ﷺ ـ، والجحود: عدم الاعتراف بالشيء وإنكاره مع العلم به[1]، فهم يوقنون أنه كلام الله، ولكنهم جاحدون له، أما مبعث الرسول ـ ﷺ ـ فهم مكذبون له بالكلية، غير مقرين ولا معترفين به.

كما عمد حسان إلى التوكيد بأسلوب القصر المستفاد من تقديم المسند إليه (لفظ الجلالة) على الخبر الفعلي في سياق الإثبات في قوله: (والله يظهر دين كل رسول)، بالإضافة إلى التقرير والتوكيد باسمية الجملة؛ للدلالة على الثبوت والدوام، فإظهار دين الله، وإعلاء كلمته سُنَّة من سنن الله، وقاعدة لا تتبدل، وواقع ثابت من ثوابت العقيدة على مدار العصور والأزمان، فالله ناصر رسله ومؤيدهم، وقد اقتبس هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[المجادلة: ٢١].

ويختم حسان بن ثابت أبياته بإلحاق شتى ألوان التنكيل والتوبيخ والتقريع ببني جمح في قوله:

لَعَنَ الإِلَهُ أَبـــــا خُزَيمَةَ وَابنَهُ وَالخالِدينَ وَصاعِدَ بنَ عَقيلِ

ومن خلال إيثار الماضي في قوله: (لعن الإله ...) يقرر استحقاقهم الخزي والهوان في الدنيا، والدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله في الآخرة، ثم أخذ حسان بن ثابت يعدد ذكر بعض أسماء بني جمح كأبي خزيمة: عمير بن وهب الجمحي وابنه وهب بن عمير، الذي أسر يوم بدر، وقصد بالخالدين: خالد بن هشام بن المغيرة المخزومي، وخالد بن الأعلم العقيلي حليف بني مخزوم[2] .

وفي موضع آخر يهجو حسان بن ثابت ابن الزبعري[3] حين بكى قتلى المشركين ببدر[4]:

---

(١) ينظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـ٤٦ ، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

(٢) ينظر ديوان حسان ٣١٢/٢ .

(٣) عبد الله بن الزبعري بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم القرشي السهمي، كان من أشعر قريش، وكان شديدًا على المسلمين، ثم أسلم في الفتح وحسن إسلامه، الإصابة في تمييز الصحابة ٧٦/٤ .

(٤) الأبيات من بحر الكامل، وهي في السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٤/٣ ، وفي ديوان حسان ١٦٠/١ .

ابكِ بَكَت عَينـــاكَ ثُمَّ تَبـادَرَت بِدَمٍ يَعُلُّ غُروبَهَا بِسِجـــامِ[1]
ماذا بَكَيتَ عَلى الَّذينَ تَتابَـعوا هَلّا ذَكَرتَ مَكارِمَ الأَقـــوامِ
وَذَكَرتَ مِنّا ماجِـداً ذا هِمَّـــةٍ سَمحَ الخَلائِقِ ماجِدَ الإِقدامِ
أَعني النَبِيَّ أَخا التَكَرُّمِ وَالعُلى وَأَبَرَّ مَن يولِي عَلى الأَقسامِ
فَلَمِثْلُهُ وَلَمِثْلُ ما يَدعو لَـــهُ كانَ المُمَدَّحَ ثَمَّ غَيرَ كَهـــامِ

وفي هذه الأبيات يأمر حسان بن ثابت ابن الزبعري بالبكاء، وقد يتوهم السامع لأول وهلة أنه يريد منه أن يبكي لكي يُنفِّث عن نفسه الحزن بالبكاء؛ لأن البكاء طريق للتعبير عما تشعر به النفس من ضيق وألم، وربما يذهب ببعض الحزن من القلب، ولكن سرعان ما يتفاجأ السامع بأن غرض حسان من الأمر بالبكاء هو السخرية والاستهزاء، فيأتي الفعل الماضي (بكت عيناك) مؤكدًا لهذا الغرض، ويدل على هذا أنه صاغ البكاء في صورة الأمر، ثم في صورة الماضي بغرض الدعاء، مما يؤيد أن المراد هو بكاء التحسر والحزن والقهر؛ لأنه يدعو عليه بأن يبكي بدلًا من الدموع دمًا متدفقًا.

كما يؤيد هذا أيضا الاستفهام في البيت الثاني: (ماذا بكيت على الذين تتابعوا ؟)، فهو يسخر من بكائه على أمثال هؤلاء الذين ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة، ويرشده إلى ما ينبغي أن يقوم به بدلًا من العويل والبكاء في قوله: (هلا ذكرت مكارم الأقوام)، وبهذا يوبخ حسان بن ثابت ابن الزبعري رويدًا رويدًا؛ إمعانًا في التهكم به، والسخرية منه، فيأمره بالبكاء أولًا، ثم يدعو عليه بأن يبكي دمًا بدلًا من الدموع، ثم يسأله عن سبب بكائه استهزاءً وتوبيخًا وتقريعًا، ثم يرشده إلى ما ينبغي أن يقوم به بدلًا من البكاء، فيحثه على ذكر مكارم الأقوام، ومحاسنهم التي تُبقي ذكرهم بين الناس، وأن هذا أولى من البكاء؛ ليخلص من وراء هذا إلى إقراره بفضل النبي ـ ﷺ ـ؛ لأنه لو بحث عن مكارم القوم، وجال بخاطره بحثًا عن محاسن الأخلاق، فإن أول من يتبادر إلى الأذهان هو صاحب الهمة، أكرم الخلق، وأبرّ من يقف مُقْسِمًا، محمد ـ ﷺ ـ، وأكد هذا المعنى بالتفصيل بعد الإجمال في قوله:

أَعني النَبِيَّ أَخا التَكَرُّمِ وَالعُلى وَأَبَرَّ مَن يولِي عَلى الأَقسامِ

وحسان عند تعرضه لذكر النبي ـ ﷺ ـ والحديث عن مكارم أخلاقه التي شَهِد لها القاصي

---

(١) تبادرت: أسرعت. ينظر لسان العرب، بدر، ٤٨/٤. يُعَلُّ: من العلل وهو الشربة الثانية، أو الشرب مرة بعد أخرى تباعًا. لسان العرب، علل، ٤٦٧/١١ . والغروب: مجاري الدموع. لسان العرب، غرب، ٦٤٢/١ . والسجام: الدمع إذا سال وانصب. لسان العرب، سجم، ٢٨١/١٢ .

والداني، كان تعدد النعوت هو الأنسب للتوكيد هنا؛ حيث وصف النبي ـ ﷺ ـ بكونه: (ماجدًا، ذا همة، سمح الخلائق، ماجد الإقدام، أخا التكرم والعلى، وأبر من يولي على الأقسام)؛ لأن هذه الصفات قد عَلِمها المشركون وأقروا بها قبل مبعثه، وفي هذا مدح وتعظيم للشمائل والمحاسن المحمدية ـ من جانب ـ وتعريض بذم المقتولين وسلب هذه الصفات عنهم ـ من جانب آخر.

وحين أراد أن يجعل استحقاق المدح له ولدعوته، وكل ما سواهما أضعف وأقل من أن يُمدَح، عمد إلى التوكيد باللام الموطئة للقسم المحذوف التي دخلت على لفظ (مثل) في قوله:

فَلَمِثْلُهُ وَلَمِثْلُ ما يَدعو لَـــهُ كانَ المُمَدَّحَ ثَمَّ غَيرَ كَهــامِ(١)

وإذا كان من هو مِثْل النبي ـ ﷺ ـ ومِثْل دعوته هو ما يجب أن يُمدَح، فإن استحقاقهما المدح من باب أولى، ويؤيد هذا التوكيد بتكرار لفظ (مِثْل)، كما يفيد تقديم (مِثْل) على الخبر الفعلي (كان الممدح ..) الكناية عما أضيفت إليه من غير تعريض، فكان تقديمها كاللازم بهذا المعنى، والكناية وجه من أوجه التوكيد، وسبب من أسبابه؛ لأنها كدعوى الشيء مصحوبًا بالدليل والبرهان، وهذا أقوى في إثبات المعنى وتحقيقه.

ومما قال حسان في هجاء كعب وعامر ابني لؤي يوم بدر(٢):

لَقَد شَقِيَت كَعبٌ جَميعاً وَعامِرٌ بِأَسيافِنـــــا يَومَ اِلتَقَينـــا عَلى بَـــدرِ

قَتَلناهُـمُ قَتلَ الكِلابِ فَلَم نَدَع لَهُم في جَميعِ الناسِ يا صاحِ مِن فَخرِ

وقد آثر حسان بن ثابت في هجائه طرقًا متنوعة للتوكيد، بدأها بلام القسم، وقد، والفعل الماضي (شَقِيَت)، والتوكيد المعنوي (جميعًا)، فهو يقرر شقاء من يهجوهم، ويؤكد بؤسهم؛ إمعانًا في تحقير شأنهم، وإلحاقًا للذل والخزي بهم، ثم يوضح سبب هذا الشقاء بالباء في قوله: (بأسيافنا)، فإن سيوف المسلمين يوم بدر أذلت نفوسهم، وأخضعت كبرياءهم، وألحقت بهم شتى ألوان النكال والصغار.

كما عمد حسان ـ رضي الله عنه ـ في البيت الثاني إلى التوكيد بطريق التفصيل بعد الإجمال، والإيضاح بعد الإبهام؛ حيث فصَّل ما قامت به سيوف المسلمين؛ إذ أمعنوا فيهم القتل، وأعملوا فيهم السيوف، فقتلوهم شر قتلة، وعبر بالماضي (قتلناهم)، وبالمصدر المؤكد

---

(١) الكهام: الضعيف، وتكهم: بطؤ عن النصرة والحرب، وفرس كهام: بطيء عن الغاية. ينظر لسان العرب، كهم، ٥٢٩/١٢ .

(٢) الأبيات من بحر الطويل، وهي في ديوان حسان ٤٢٤/١ ، والتعليق على الديوان ٣٠٦/٢.

لعامله: (قتل الكلاب)؛ لتقرير مضمون الكلام وتثبيته، واستعان على تصوير قتل المشركين بتشبيه قتلهم بقتل الكلاب؛ تأكيدًا على حقارة شأنهم، وانحطاط منزلتهم، ومحو كل ما من شأنه أن يعد سبيلًا لفخرهم، وقد تعانقت الكناية مع التشبيه في التأكيد على شدة ما وقع بالمشركين من بأس، وما فعله جيش المسلمين من التنكيل بهم، وإذلالهم، وذلك في قول حسان: (فَلَم نَدَع لَهُم في جَميعِ الناسِ يا صاحِ مِن فَخرِ) فهو يثبت بالدليل، ويؤكد بالبرهان على شدة ما لحق بالمشركين من خزي ومهانة، وعدم إبقاء المسلمين لأي أثر للمشركين يمكنهم الفخر به، وأيد هذا دخول (من) الزائدة على النكرة (فخر)؛ تقريرًا لعدم وجود أدنى ما يمكنهم الفخر به، ، ولعل حسان قصد من ترخيم المنادى (يا صاحِ) أن يشهد له صاحبه على صدق كلامه، وأن يوافقه الرأي فيما قال؛ ليكون كلامه هو الآخر دليل صدقه، ومحل تقرير وتوكيد لمغزى كلامه، ودليل استحقاق المشركين للهجاء والتقريع.

الخاتمة

****

وبعد هذه الرحلة التي عاش فيها القلب مع وقائع وأحداث غزوة بدر كأنه يراها، وتَطَلَّع إلى زمن ضَحَّى فيه الصحابة الكرام بأغلى ما يملكون في سبيل الدفاع عن نبيهم - ﷺ - ودينهم، يُؤذَن للقلم أن يُسَطِّر على خجل واستحياء بعض النتائج التي توصل إليها البحث في نهاية رحلته، ومنها:

١- استطاع حسان بن ثابت -رضي الله عنه- أن يُطوِّع طرق التوكيد المختلفة وأساليبه المتنوعة لخدمة الأغراض التي استدعتها المقامات التي نظم فيها شعره في غزوة بدر، وقد ناسب كل طريق من هذه الطرق المقام الذي جاء فيه، والسياق الذي نادى عليه واقتضاه؛ وذلك بغية الوصول بالمخاطب إلى أعلى درجات تحقيق المعنى في النفس، وترسيخ مضمون الكلام في العقل والقلب.

٢- كثرة طرق التوكيد في مقام وصف النبي - ﷺ - وجيش المسلمين يوم بدر، وهذا يتواءم مع غرض الوصف الذي هو أقوى أغراض الشعر، ويتلاءم مع الغرض الذي نُظمت الأبيات لأجله؛ لما لهذه الطرق من زيادة تقرير المعنى، وترسيخه في النفوس، وتحقيقه وتمكينه في العقول والأفئدة؛ فتارة يؤكِّد بالأسلوب الكنائي أو الاستعاري، وتارة بأسلوب التوضيح بعد الإبهام، أو بأسلوب القصر بطريق التقديم، أو بإخراج الكلام مخرج التعليل أو الحالية، كما جاء التوكيد بـ(قد) والفعل الماضي.

٣- تعددت طرق التوكيد في مقامي الفخر والمدح لشجاعة المسلمين؛ لأن الفخر من أهم فنون الأدب تأثيرًا على الإنسان؛ فغالبًا ما يرتبط بالشجاعة والقوة والاعتزاز بالنفس والأهل والعشيرة، وأيضًا لأن المدح فن أدبي يتوصل من خلاله إلى ذكر محاسن الممدوح والثناء عليه، وتعداد فضائله ومآثره، ولم تكن المبالغة غير المقبولة في مدح المسلمين من خصائص شعر حسان، بل كان الصدق في المشاعر، والحرص على إبراز الحقائق ديدنه؛ لذا استعملت طرق التوكيد على اختلافها وتنوعها في هذين المقامين، كالتوكيد باللام الموطئة للقسم، والباء الزائدة، وأنَّ، واسمية الجملة، والتقديم، والتوكيد بـ(قد) والفعل الماضي، والتوكيد بالأسلوب الكنائي، كما آثر من طرق التوكيد أيضًا: التنبيه بـ(ألا)، وأساليب الاستفهام، والتعجب، والقسم، وأسلوب القصر، وكم الخبرية.

٤- كثرة طرق التوكيد في مقام الرثاء؛ لأنه من أصدق الفنون الأدبية تعبيرًا عن الأحاسيس والعواطف؛ فهو يذكر محاسن من فارق الحياة، ويُثنِي على خصاله الحميدة،

ويتأسف على مفارقته، فالمشاعر صادقة، خالية من الرياء، ولما كان مقام فقد الأحبة يصيب النفس باليأس والقنوط، ويبعث فيها دواعي الحزن والألم، ويستثير مواطن الحنين والشوق، فإنه قلَّ من يثبت في هذا المقام، وقد تميز رثاء حسان بالإحساس المرهف، والعاطفة الصادقة، والمشاعر الجياشة، والتصوير الدقيق؛ لذا احتاج إلى التوكيد الذي يُثَبِّت النفوس على معتقدها، ويعيد العقول إلى رشدها وصوابها؛ فآثر من طرق التوكيد: (ألا) التنبيهية، وأسلوب النداء، والاستفهام، والأسلوب الكنائي، و(قد)، والفعل الماضي، وإنَّ، واسمية الجملة، وأسلوب القصر، والتقديم، ولام الاختصاص، وأسلوب التذييل والاقتباس والاعتراض.

٥- جاءت طرق التوكيد في مقام الهجاء إلا أنها ليست بالكثرة الواردة في مقام الوصف أو المدح أو الفخر أو الرثاء؛ لأن غرض الهجاء يقوم على ذكر مثالب الخصم، وتعداد معايبه ومساوئه، وتجريد المهجوّ من كل فضيلة، ولعل قلة المؤكدات تدل على أن معايب الخصم قد ذاعت واشتهرت، وصارت أمرًا معروفًا للقاصي والداني، فلا يشك فيها أو ينكرها أحد، وهذا أبلغ في الذم، وأقذع في الهجاء، ومن طرق التوكيد التي استعملت في هذا المقام: الفعل الماضي واسمية الجملة، والتقديم، والجملة الحالية.

٦- كثر استعمال حسان ـ ﷺ ـ للفعل الماضي في توكيد معانيه؛ وذلك لدلالته على تحقق الوقوع وحصوله، وهذا يجعله أكثر مطابقة للواقع؛ لأن حسان يحكي أحداثًا وأمورًا قد وقعت وحدثت في الزمان الماضي، كما أن صيغة الماضي هي التي تتلاءم مع عرض هذه الأحداث والمواقف على طريقة الحكاية؛ لارتباطها بالأحداث التي وقعت في الزمن الماضي.

٧- استند حسان ـ ﷺ ـ كثيرًا في توكيد معانيه على الجملة الاسمية؛ لدلالتها على الثبوت والدوام، وهذا يقتضي أن هذه المعاني والأوصاف التي وصف بها موصوفيه هي صفات لازمة ثابتة لا تنفك عنهم، وأنها أصيلة فيهم وليست صفات عارضة قد تزول بزوال الداعي.

فهرس المصادر والمراجع

****

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤ م.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين ابن الأثير. تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى،١٤١٥هـ، ١٩٩٤م
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ .
- الأطول للعصام، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .
- الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢م.
- ألوان من تاريخ البلاغة وفن المعاني. د/ الوصيف هلال الوصيف، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة.
- البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حَبَنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م.
- تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة، لبنان، بيروت، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.
- تاريخ الأدب العربي، د/ شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٠ – ١٩٩٥ م.
- التعريفات للجرجاني. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، القضاعي الكلبي المزي. تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢ م.
- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت.
- حسان بن ثابت شاعر الرسول. د/ سيد حنفي حسنين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٣م.

- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
- ديوان حسان بن ثابت تحقيق/ د. وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦م.
- سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي. تحقيق/ مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥م.
- السيرة النبوية د/ علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- شاعر النبي حسان بن ثابت الأنصاري (دراسة ونقد ومنتخبات) لعبد الله أنيس الطباع، مكتبة المعارف في بيروت.
- شرح التصريح علي التوضيح تأليف/ خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري، زين الدين المصري المعروف بالوقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠ م.
- شرح المفصل لابن يعيش. قدم له: د/إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، بدون تاريخ.
- شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
- صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى للعلويّ. المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- غزوات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للسيد الجميلى، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤١٦ هـ .
- غزوة بدر في شعر حسان "دراسة موضوعية وفنية". د/ عصام حمدي عطية ضيف، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، المجلد ٢٧، ٢٠١٤م.
- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد بن علي التهانوي. تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
- الكشاف للزمخشري. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي. تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- لسان العرب لابن منظور. دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ.
- مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي، وزارة المعارف العمومية، الطبعة الخامسة بالمطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٢م.
- المطول لسعد الدين التفتازاني. تحقيق/ عبد الحميد هنداوى، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤ هـ، ٢٠١٣ م.
- معاني الأبنية في العربية د/ فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة. تأليف: د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، تحقيق: د/ مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.
- مقامات التعبير بـ(ألا) الاستفتاحية في شعر حسان بن ثابت (دراسة بلاغية) د/ دسوقي عبد المعز محمد محمد، بحث مستل من حولية كلية اللغة العربية بجرجا ، العدد السادس، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل "دراسة في مقامات الكلام وأسراره" أ.د / السيد أحمد موسى، بحث مستل من حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، العدد التاسع والثلاثون، ٢٠١٩م.

فهرس الموضوعات

****

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	**٥١**
المقدمة	**٥٣**
التمهيد	٥٦
أولًا: التعريف بالتوكيد وبيان فائدته.	٥٦
ثانيًا: دواعي توكيد المعنى ومقاماته.	٥٨
المبحث الأول: التوكيد في مقام وصف النبي ـ ﷺ ـ وجيش المسلمين يوم بدر.	٦٠
المبحث الثاني: التوكيد في مقامي الفخر والمدح لشجاعة المسلمين.	٧٠
المبحث الثالث: التوكيد في مقام رثاء شهداء المسلمين.	٨٢
المبحث الرابع: التوكيد في مقام هجاء الكفار وتعديد قتلاهم.	٩٢
الخاتمة	١٠٤
فهرس المصادر والمراجع	١٠٦
فهرس الموضوعات	١٠٩